رينه حبشي

الثورة والوحي

أقل ما يرجى من الوحي أن يكون ثورة وإلاّ فأي وحي هو ؟

*

يخلط البعض وهذا خطأ غريبٌ ، بين الوحي والتزمّت ، فيتنكرون بذلك لطبيعة الوحي ويعطلونه وهم يدّعون دعمه وتوكيده . أما نحن الذين نحيا ونجول في نسبية التاريخ ، فكيف نعي هبوط المطلق إن لم يكن بادىء ذي بدء أزمة يفجرها المطلق في فكرنا فيطيح بما تعودناه من أطر عقلانية وما ألفناه من أشكال الحياة .

وثمة من يسارعون ازاء رسالة الوحي الى القاء شبكة أفكارهم عليها ، وهي أفكار يستمدونها من تجربتهم الخاصة بغية استكشاف ما يضبطهم من قوانين كما لو كان هدف الوحي تثبيت نظرتهم في الحياة والكون .

لكن هذه النظرة الحقوقية المقدسة للطبيعة سجن براق يكبل الوحي ويخنقه في الحال . وهو سجن تنتهي فيه الطبيعة نفسها الى الزوال بسبب فقر خيالنا نحن ، مع أن في الطبيعة امكانات ومفاجآت لا حد لها . ان هذا النمط في امتصاص النسبي للمطلق يدمر كلا الاثنين .

*

وثمة موقف آخر أشد خيانة لطبيعة الوحي وان اتصف بالاخلاص أحياناً وهو موقف من يقرّون أن بامكان رسالة الوحي ، حين ظهورها على الأقل ،

أن تتخذ وجه معجزة أو نكبة . وهم الى ذلك مستعدون للاعتراف بمن سبق من الانبياء لكونهم أنبأوا بالخوارق أو حققوها .

فما هو خارق يسحرهم ، لكنه لا يبدو كذلك إلا من حيث انفصام علاقته بالماضي . أما مهمتهم بعد ذاك فترويض الخارق ومن ثم تحويله الى شأن يومي يستشف فيه نزوع الانسان نزوعاً مستمراً نحو الأفضل .

يقولون : هبوط المتعالي في الطبيعة هو بذاته أمر ثوري الى حد يستوجب محو آثاره السيئة . فالرسالة قد نقلت مثلاً إنسانياً أعلى الى مجتمع سمت به الأخلاق . وهذا يؤدي الى خفض جناح الانسان الحاضر وفي الوقت نفسه الى تضميد جراحه بمعاينة إمكانات كماله .

اي بمعنى آخر السجود لعظمة الرسالة وفي الوقت نفسه تجريدها من حدّتها والنظر اليها كنداء يساير مجرى التاريخ . وهكذا يتخلص الانسان مما هزّ مشاعره .

ان الاعتراف بما هو خارق في تفجير رسالة الوحي والتشديد على المعجزة والروعة مهمتها هنا ايجاد أساس ممكن لما هو متعال في البدء . على هذا النمط يشيد بعض المسيحيين بالمعجزات الواردة في الانجيل والتي قد يناقشها العلم يوماً ، كما يشدد بعض المسلمين على الاحداث الخارقة في حياة **الرسول** أو على كون **القرآن** قد لمّح الى وجود **الذرة** التي انتهى العلم الى اكتشافها أو كذلك على كمال لغة **القرآن** الذي لا يضاهى .

ولكن الكمال المقصود هو بالنسبة الى أية لغة ؟ لغة الماضي أم لغة المستقبل ؟

والمعجزة هي بالنسبة لأي علم ؟ علم **بتوليماوس** أم علم **اينشتاين أم علم الاجيال المقبلة ؟**

هكذا يتم تصور الخارق استناداً للطبيعة وهذا نمط آخر اكثر خفرا في حجب المتعالي بستار الطبيعة ، وذلك بوسمه بما يكفي لتكوين مثل أعلى نسعى اليه انما بصورة لا تقضّ مضجعنا دون هوادة .

لكن غشاء الروعة هذا وهو يلفّ نقطة لقاء التعالي بالطبيعة هل هو بالضرورة من صلب الوحي ؟

الحق أن هذا الغشاء نسبي ؛ نسبي الى معاصري الحدث ومفاهيمهم ونظامهم الاسطوري ، وهو بذلك ارتسام لما هو انساني في المطلق اكثر مما هو انعكاس للمطلق في ما هو نسبي .

ازدواجية لا مفر منها ولا بد من وعيها . ولذا يترتب على النقد الديني بعد ذلك أن يبادر ، كما يفعل اليوم ، الى تجريد الوحي من وشاح الأسطورة وأن يفعل ذلك بقلق ، بقلق من يخشى رمي حبة الحنطة مع قشرتها أي بمعنى آخر الاطاحة بالقصد المتعالي وبتعبيره العرضي في آن .

ولكن اذا لم يعالج الانسان الوحي بنقد مستمر — وهو نقد أليم أحياناً نظراً لتعلق الانسان بما أودع إياه — فتدجين الأبدية من جانب التاريخ تدجيناً متصاعداً يؤدي الى نقض التعالي بتحويله الى طبيعة ، وبالتالي الى تشويهه شيئاً فشيئاً ، وذلك مهما بلغ تعبد الانسان لما هو سرمدي .

*

وثمة نمط آخر في رفض التعالي والتخلص منه ، وذلك باعتباره جذرياً من باب المستحيل واللامعقول كأنه أبعد ما يكون عن الحياة . انه نمط لا يخلو من الاحترام وقد يخالجه أحياناً نوع من الرهبة المقدسة . فالسرمدي لا يلتقي الزمان في أي حال ولا يمكن للمطلق أن يجاور النسبي ولو بالتماسّ .

ومن المفارقة بمكان أن تؤدي هذه الطريقة في ابعاد المطلق وجعله ينطوي على ذاته الى التساؤل بدهشة عما يقصد فعلاً بالوحي اذا لم يكن ثمة ما يوحى به اطلاقاً . وكيف يشار الى التعالي طالما انه لا يلتقي الطبيعة في أية نقطة وطالما أن لقاءهما ولو في نهاية المطاف مستحيل ؟

من ناحية المسيحية نجد قريباً من هذا الموقف قول اللاهوتي **ترتوليانوس** «**أومن لأن هذا عبث**» وهو قول تبناه الفيلسوف الوجودي كيركغارد . أما من ناحية الاسلام فالمتعالي المتوحد يفرض استسلام المؤمن بلا قيد ولا شرط .

ليست القضية هنا قضية اللاهوت الايجابي أو فلسفات عدم المعرفة أو صوفية ظلام الحواس والروح التي تعترف بعجزها عن ادراك المطلق انما تسميه بمفاهيم تنضح دموعاً ودماً . فتجربة العدم موسومة بتجربة الكل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكن ثمة موقف مناقض تماماً يقول بعدم انسجام جذري بين التعالي والطبيعة وبالتالي بعجز التعالي عن الامساك بالطبيعة أي ان الانسان يرفض أية علاقة مشكلة مع الله بحيث يعكس الانسان في الله عجزه الكلي . ان موقفاً كهذا يؤدي ، كما في بعض تيارات **البروتستانتية** الحديثة ، الى تصور لاهوت بغير الله ووضع فلسفة لا أثر فيها للتعالي ، أي أن الله يقف في جانب والانسان في جانب آخر كأن لا جسر بين الضفتين .

هذا يعني عملياً وجود عزم اكيد على انكار محتوى الوحي بحجة ان هذا الأخير على مستوى والانسان على مستوى آخر . وبما ان محتوى الوحي فيه من الكمال ما لا يمكن بلوغه فما على الانسان الا أن يكشف طريقه بما أوتي من نور. ذلك ان الضلال هو من صلب الانسان .

*

هكذا غاب عن ذهن هؤلاء انه اذا كان الانسان عاجزاً عن تخطي حدوده بوسائله الخاصة فالله قادر كل القدرة على التجلي من خلال الانسان وقادر على جعل الانسان يتخطى ذاته بلا حدود .

غاب عن ذهنهم ان الله قال عن ذاته في سفر التكوين **« أنا من هو كائن »** أي أنه الروح الوجودي في كل الكائنات . عندئذ ينبىء الوحي عن ذاته في صميم الانسان مطيحاً باطار الطبيعة من داخل ، مبشراً من خلال التاريخ بما يعجز التاريخ عن الادلاء به من معان ومحتويات .

من خلال ذلك تبدو رسالة الوحي مستحيلة . ويبدو **نيتشه** على حق في اتهامه الله بأنه ألد اعداء الانسان لو كان المقصود بالاتهام أن الله يمنع الانسان من بلوغ الراحة في طبيعته ويمنعه من اغلاق سلسلة افكاره على ذاتها والاستمتاع بامكاناته الخاصة استمتاعاً هادئاً .

لكن الوحي إما ان **يكون ثورة مستمرة التفجر واما أنه لا يكون .**

هذا وليس الوحي وحيا من حيث يضع في نقطة البدء أو في نقطة النهاية مثلاً أعلى يجاوز اطار التاريخ بل من حيث يضع دوماً في صلب التاريخ كثافة وجود تفتح للتاريخ في كل لحظة آفاق تجاوز مستمر .

بهذا المعنى لا يتطور التاريخ ابداً باتجاه وحي ما بل هو في صراع مستمر مع الوحي بحيث يُحدث كل تقدم نسبي يحرزه عطشاً أشد فأشد . ذلك ان الانسان لن ينتهي أبداً لا الى الخضوع ولا الى العزاء .

ولكن لأن الوحي في الوقت ذاته يخترق التاريخ بكل كثافته ولأن الله يلف الانسان ببهاء نوره فالوحي ينبض حيا في صميم الوجود . فلغته لغة بسيطة غير متوقعة وهي لغة البذل والحرية والمحبة . بهذا وحده يعرف الوحي أنه رسالة حب ، ورسالة كشف عن الحب .

فالوحي ثوري من حيث هو حب وعدو من حيث هو وداعة ومتيقظ من حيث هو رحمة . ولذا فالوحي يقضي على تصلبنا الداخلي وينسف الحواجز القومية والايديولوجية ليحتل صميم فؤادنا ويجعلنا نستقر في وحدة شاملة وفي حوار المحبة وحياتها .

وهذا بالضبط ما يجعل الوحي غير قانع بأي نظام اقتصادي او اجتماعي وبأي استقرار سياسي أو تعبير ثقافي ، بل يشق طريقه من خلال كل ذلك كما تعاند السفينة الأمواج وتمخر عكس التيار . ان الوحي لا يكتفي بالضغط من أجل « حياة أفضل » — أي من اجل تنظيم للعالم أفضل — بل من اجل « مزيد من الوجود » ومن اجل تجديد وجه العالم . انه خميرة ثورة مستمرة .

*

هكذا نجد الوحي حدثاً محورياً لا يسعنا ان نفترضه على هامش التاريخ وحسب . فهو تحويل جذري لكل احداث التاريخ وارتقاء بها ارتقاء وجودياً صميماً . انه مشاركة احداث التاريخ كلها في عملية صهر فريدة ، صهر ما هو متعال وما هو طبيعي ، ما هو مطلق وما هو نسبي ، صهر الزمان والأبدية .

ولذا فنحن ابناء حضارة المتوسط التي ينصب فيها تراث اليهودية والمسيحية والاسلام لا نرضى أن تُهمل حضارتنا وبالتالي أن تُدنس ذلك السر بما فيه من صداقة ومحالفة بين الله والانسان .

(نقل المقال من الفرنسية الى العربية حنا دميان)

حسن صعب

كتاب الحركة

خلق الاسلام بالقرآن اي بالكلمة الآلهية رسالة جديدة ، وشرعاً جديداً ، وامة جديدة ، وحضارة جديدة . وكيفما كانت الاسباب التاريخية والجغرافية والديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تواترت في تأليف وتحريك عملية هذا الخلق التاريخي ، فان الكلمة الآلهية معبراً عنها بالقرآن هي التي استجمعت جميع هذه العوامل كاندفاع تاريخي جديد او كقوة تاريخية خلاقة . ولذلك لا يسوغ فهم الاسلام الا بالقوة الفريدة التي حركته : قوة الكلمة الخلاقة . فقد ظل الاسلام ينمو ويتسع ويتقدم ما دامت الكلمة الإلهية كلمة خلاقة ، اي ما دام لها فعلها الخلاق في النفس الانسانية والمجتمع الانساني والتاريخ الانساني . **ووقف الاسلام منذ استحالت الكلمة الخلاقة كلمة لازمة تتكرر ليل نهار وكأنها ليست اكثر من صدى خافت لماضٍ بعيد !**

ان اعجاز الكلمة الخلاقة هو اعجاز القرآن واعجاز الاسلام الحقيقي . ويكاد يكون اروع وجه من وجوه اعجازها انها امر إلهي بالحركة الدائمة . ويكفي ان يقرأ الانسان القرآن قراءة اولى ليشعر في كل آية من آياته انه كتاب الحركة . انه الصورة الرائعة لحركة الخلق الإلهي . والامر الإلهي بالحركة هو الأمر الوحيد الثابت الذي لا يتغير . ولكن كل ما عداه في حالة حركة دائمة وتغير دائم . انها سنة الله لكل ما هو كائن ، سنة الحركة ، « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

ان الكلمة القرآنية هي تذكرة اي توعية بهذه الحركيّة الكونية : فهي تذكرة بحركية عملية الخلق كعملية كلية . « انه يبدأ الخلق ثم يعيده ».

« يزيد في الخلق ما يشاء » . « ثم انشأناه خلقاً آخر » . « يخلق ما يشاء » . « ويخلق ما لا تعلمون » .

وهي تذكرة بحركية آيات الخلق الطبيعي ، كما تتجلى « في اختلاف الليل والنهار » ، وفي الشمس « ... تجري لمستقر لها .. » ، وفي « الأرض الميتة احييناها ... » وفي القمر « قدرناه منازل .. » ، وفي الفلك « .. تجري في البحر .. » ، وفي نظامية الحركة الطبيعية « لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » .

وهي تذكرة بحركية خلق الانسان . « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً **ثم انشأناه خلقاً آخر** فتبارك الله احسن الخالقين » . « وقد خلقكم اطواراً » .

وهي تذكرة بحركية المجتمع : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ... »

وهي تذكرة بحركية التاريخ : « وتلك الايام نداولها بين الناس » ، «ألم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وارسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الانهار تجري من تحتهم فاهلكناهم بذنوبهم وانشأنا بعدهم قوماً آخرين » .

ان الحركية التي تذكر بها الكلمة القرآنية هي حركية إلهية البداية والنهاية، ولكنها استحالت مع ذلك حركية انسانية خلاقة . وقد كان هيجل فيلسوف الحركة والحركية في العصر الحديث احسن من رأى هذا الفعل الحركي للكلمة القرآنية ، فنوه بها في كتابه « فلسفة التاريخ » ص ٣٥٧ ، وذكر ان اهم ما يمتاز به الاسلام هو نفيه الثبات عن كل موجود حسي ... « فكل شيء مدعو لأن يمتد امتداداً ذاتياً في الفعالية والحياة في رحابة العالم التي لا حد لها . فتظل عبادة الواحد الصلة الوحيدة التي يتوحد بها الكل .. » وما دام الواحد هو الحد الوحيد لهذه الحركية ، وهو ذات مجردة ، فانها حركية اللامحدود أي الحرية المطلقة . وما دامت حركية الحرية المطلقة ، فانها في رأي هيجل تستثير حماسة تستفز أعظم ما عرف الانسان من افعال . « فقد يتحمس الافراد لما هو نبيل ورائع بأشكال شتى . ولحماسة شعب لاستقلاله قصد معين . ولكن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحماسة الشاملة لأنها مجردة لا يقيدها اي شيء ، ولا يحدها أي شيء ، ولا تبالي بأي شيء ، هي حماسة الشرق المحمدي . » (فلسفة التاريخ ، ص ٣٥٩) .

الكلمة الإلهية هي اذن خلاقة لانها تذكرة بالحركية الدائمة وتوعية بالحرية المطلقة . انها خلاقة لانها محركة ومحررة . فهي تبعث في النفس الوعي الكامل بعملية الخلق الكلية ، وتوجهها في طريق الخالق ، وهو طريق الحرية المطلقة . وهنا يبدو بهتان المسخ الذي أصاب الاسلام من قبل ابنائه واعدائه على السواء ، حين صوروا طريق الايمان بالله على انه طريق العبودية المطلقة . ان الله الذي لا يحده شيء المثل الاعلى في السموات والارض . « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه وله المثل الاعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . » ان مثله الاعلى هو مثل الحرية المطلقة . والايمان به والتسليم له هو التزام بهذا المثل الأعلى اي بالحرية المطلقة ، وتعهد باتخاذ الوجود سلماً لتحقيق هذه الحرية. وقد رأى هيجل ايضاً فعل هذا المثل الأعلى في الذات المؤمنة ، ورآه يتجلى « ... في الروح النبيلة ... في جلال الحرية على وجه لا مثيل له في نبله واريحيته وشهامته وصدقه . » (فلسفة التاريخ ، ص ٣٥٨) .

الكلمة الخلاقة هي الله . ولأنها الله فانها لا تفتح الطريق أمام الانسان للعبودية المطلقة بل للحرية المطلقة . ولئن ظهرت الحرية فيها كينونة الله وحده ، فانها تظهر كذلك ، كصيرورة الانسان وحده . فالانسان هو الكائن الوحيد الذي خلقه الله على صورته ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله خليفته في الأرض . « واذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » . وقد رأى المتصوفون هذه الحقيقة القرآنية احسن مما رآها سائر المسلمين ، فاصبح دعاؤهم لله كما ارسله البسطامي : اللهم « ... زيّني بوحدانيتك ، وألبسني انانيتك ، وارفعني الى احديتك .. » فاذا ما استجاب الله الدعاء ، ورفعه اليه ، وكشف له من حجب الكون ما كشف لابن قضيب البان الموصلي ، ذكر لنا حقيقة الانسان عند الله فقال « ثم اراني الحقيقة الجامعة ، وقال لي : هي الأسرار الانسانية . وقال لي : الانسان نقطة الفلك لمدار الوجود ، الانسان ثمرة شجر الكون المبنية ، ونواتها المغروسة في الارض البيضاء . ثم عرفني سبب تسخير الأشياء للانسان وسر الامداد الإلهي للوجود الانساني ، وكشف لي عن اتصال اشعة شمس روحه فيها ، واظهار القدرة في الجزء الاختياري المنسوب الى الانسانية ، واراني كيفية قيام الكون به» .

الكلمة خلاقة لأنها الله الخلاق . والله خلق لانه حرية . فهو حر في ان

يخلق او ان لا يخلق ، ولكنه اختار الخلق على اللاخلق . والانسان المتخلق باخلاق الله ، كما يريد له الرسول ان يكون ، هو الانسان الحر الخلاق . « افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون » . ووعي هذه المرتبة التي رفع الله الانسان اليها دون سائر الكائنات هو الذي جعل الحلاج يقول « انا الحقيقة الخلاقة » . انه بهذا لا يتهجم على الله كما اتهمه خصومه ، بل يعبر عن ذروة الوعي الذاتي الانساني ، التي رفعته اليها كلمة الله الخلاقة . ان هذه الكلمة هي التي دلتنا على الانسان الخلاق وهي تتحدث عن الله لا على انه الخالق الوحيد بل على انه تبارك « احسن الخالقين » .

ان المتصوف وهو يتغنى باتحاده بالله او فنائه فيه انما يتغنى بالحرية المطلقة التي بلغها بفضل ايمانه بالله . ولكن حريته هي حرية ذاتية فردية . ووقوفه عندها هو قصور عن روح الله الحقيقية وروح الاسلام الحقيقية وجوهر الكلمة الخلاقة اعني بذلك الحرية الخلاقة . ان المتصوف ملتزم بخلق ذاته الفردية خلقاً جديداً . ولكن الله التزم بخلق كل شيء خلقاً جديداً . والانسان الملتزم بالله التزاماً حقيقياً هو الذي يلتزم معه بالخلق المستمر لكل شيء ، اي بخلق العالم وكل ما فيه وكل من فيه خلقاً جديداً . ان الله خلق الكون للانسان ، وفرض عليه ان يعيد خلقه من جديد . « ألم تروا ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة .. » ان هذا الوعي الخلاق للالتزام الانساني الإلهي هو الوعي الرسولي لا الوعي التصوفي للكلمة الخلاقة . فالوعي التصوفي هو وعي من « يأخذ بالحقائق وييأس مما في ايدي الخلائق » . واما الوعي الرسولي فانه وعي من يأخذ بالحقائق ويجاهد لتغيير ما في أيدي الخلائق . وابلغ من عبر عن الفرق بين الوعيين المتصوف عبد القدوس جنجو حين قال متحدثاً عن الرسول « ان محمداً العربي صعد الى الملكوت الأعلى وعاد منه . وانني لاقسم بالله انني لو بلغت مثل ذلك المقام لما رجعت ابداً .. » ان المتصوف يكتفي برؤيا النور الإلهي ، واما الرسول فانه يرى الرؤيا ويعمل لاعادة خلق كل ما هو كائن ، أي لتصيير كل ما هو كائن بهدى نورها المشرق .

الكلمة الخلاقة هي اذن الله ، أي الحركة ، أي الحرية ، أي الخلق . والاسلام هو الكلمة الخلاقة أي هو قبل كل شيء هذه المبادىء الأربعة الأولى . وهي مبادىء وجود «الكائن المبدع» كما عرفها الاسلام . وهي المبادىء التي يمكن ان تحرك روح الاسلام من جديد تحريكاً ابداعياً ، اذا عرفنا كيف نفهم الاسلام على هداها فهما جديدا .

جورج خضر

من الوضع الى المعنى

المسيح تحديات . والتحدي الأصيل نعم ولا ، قبول وتجاوز . ليس التمرد ولا الانتفاضة ولا الاحتجاج . انه الذهاب الدائم في الانسان الى ما بعد الانسان ، الى فوقية تسلخ ولا تغيّب . انه رؤية الكيان مؤصّلا ، حركياً ، متوثباً من الأوضاع الى المواقف ، في سعي حثيث الى لقاء الله في الاعماق رجاء شراكة البشر جميعاً وتجليات الكون .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يتطلب التبصر بالثورة التي أتى بها الناصري درساً مقارناً لفكر يسوع والفرق اليهودية التي عاصرته أو سبقت . كذلك لا غنى للباحث عن درس الأنبياء القدامى لمعرفة مكانة المعلم في الخط النبوي ، لتبيّن وصفه مكملاً لتراث التوراة وتبين فذوذيته بآن واحد ، اذ لا بد من فذوذيّة ليتربع على العرش الذي تربع عليه في تاريخ الانسانية . وما يحدو بنا الى المقارنة هو ان يسوع عرف نفسه ، في الوجهة العقدية ، يقول قول الفريسيين على اختلافه السلوكي معهم . ثم إن مضمون دعوته انطلاقاً ، يختلف عن تعليم المعمدان . ولعلهما ينتميان مع صحبهما ، بشكل او بآخر ، الى حركة التجديد التي أتتنا برهبانية قمران . وقد استطاع الباحثون ان يجتزئوا من الأناجيل ما أمكن رده الى العبادة اليهودية . فالصلاة الربية نفسها التي رددتها الأجيال المسيحية بعض من هذا التراث .

المسيح ، من هذا القبيل ، مصب وقد أظهر نفسه غير ناقض لما تقلده من الكتب الموحاة (متى ٥ : ١٧) . وكانت الشريعة والانبياء والمزامير على

شفتيه نصاً او تلميحاً . ومن الضروري لتفهم فرادته أن نعرف اصراره على ان ما يعلمه مستقى من الميراث القديم وانه من هذا الميراث يطل على الجديد . يؤكد **يسوع** انه يحمل هذا الذي قيل. ولعلنا نستطيع – اذا غالينا في هذا المنحى– ان نجعل من الرسالة العيسوية مجرد وليد للرسالة النبوية العبرية .ولكن كون **يسوع** محققاً لما كان قبله وباعثاً لنبوة توارت في اسرائيل قرناً ونصف قرن لا يحول دون كونه **مستهلا** بحيث جاز لنا أن نتكلم على ما قبل المسيح وعلى ما بعده ، ليس على سبيل التأريخ وحسب بل على سبيل التقييم ، كذلك . **المسيح** ، كلمة وسيرة وموتاً وشخصاً ، **بدء مطلق** .

قد يبدو القول بثورية يسوع أمراً غريباً ، **لأن** الناصري ظهر وكأنه بعيد عن السياسة في بلده . وكانت الحياة السياسية آنذاك **تعني** مقاومة الرومان . رفض **يسوع** ان يزج نفسه فيها لئلا تقضي على رسالة له أبعد وأبقى . وقد جعلته حياة النبوة التي مارسها قريباً الى ان تعلنه الجماهير « **ماسيا** » لكنه لم يتوار وحسب بل كان يتحاشى ، **كذلك** ، اتخاذ لقب المسيح المتسم بهذه السّمة السياسية . « **ابن الانسان** » كانت العبارة التي يؤثرها لكونها ، في الأدب العبري المتأخر ،تحمل معنى الانسان السماوي الأصل . في الفة الاثني عشر ، في موقف لهم ايماني ، قبل من أحدهم هذه التسمية (**متى ١٦ : ١٦**) . لقد أبى **يسوع** التزام سياسة عصره التزاماً فعلياً مباشراً لانها كانت تقوم على ارجاع الملك **لاسرائيل** اي انها كانت مبنية على مفهوم ثيوقراطي للدولة . لقد ابى **يسوع** امتزاج قضية شعبه بقضية الله . رفض ان يربط المصير الزمني لشعب بشأن الله اذ كان يسعى الى تخطي اسرائيل في سبيل خلق « **اسرائيل جديد** » يؤلفه اليهود والأمم معاً تجمعهم صبغة الله الواحدة وتلمذة واحدة (**متى ٢٨ : ١٩**) .ادّعاؤه هو **ان** اليهود ليسوا احراراً وانهم يصبحون كذلك اذا حررهم الابن (**يوحنا : ٣٣ - ٣٦**) . موقفه من العبودية والحرية غير موقفهم ،فكيف يرمي بنفسه في مسعى قومي لا يصل بالناس الى **تلك** الحرية الداخلية التي جاء داعياً اليها ؟ الثيوقراطية اليهودية ينبغي ان تزول اذا تهدم الهيكل . ولكنه قبل سقوطه الفعلي على يدي **تيطس** سيزول معنوياً في أيام ثلاثة يقضيها المعلم في القبر (**يوحنا ٢ : ١٩**) . وعند فجر القيامة يدشن **السيد** عمل الحرية ، لا في شعبه وحسب ، بل الى ذلك ، في العالم .

على ضوء ذلك لا يسوغ اعتبار « **اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله** »

(٢٢ : ٢١) قبولاً مبدئياً او نهائياً بالوضع السياسي القائم في بلاده . المهم في القول ان المعلم يلفت سائليه الى أن لله حقوقاً علينا اكثر مما لقيصر او ان لله على قيصر ، كذلك ، حقوقاً . ليس جوابه فصْماً بين مملكتين دنيوية وأخروية. ان خضوع الدولة لله هو الذي يسوّغ قيام الدولة. تفرض علينا هذا التفسير فكرة « **ملكوت الله** » التي نادى بها يسوع ومضمونها ان الله ، منذ الآن ، سيد على الخليقة وعلى كل ترتيب قائم فيها . « **اعطوا ما لقيصر ..** » هي انطلاقة من وضع راهن الى الالتزام الأعمق بالله وملكوته العميم . سيأتي يوم حيث تستطيع السياسة ان تتحرر من المذهبية الدينية ، من الثيوقراطية ، حيث لا يكون الله أداة للانسان وعزه الأرضي ، ولا وقفاً على فئة ممتازة . اذ ذاك يتعهد الانسان العمل السياسي بنفحة إلهية وهو متحرر من اختلاطية تفسد الشأن الالهي والشأن الانساني معاً .

ان تواري يسوع الفردي عن خضم الحركة القومية لم يمنعه من ان يقبل بين الرسل انساناً كان مناضلاً فيها وهو **سمعان** الغيور . ولم يحل موقفه هذا دون تسمية ملك بلاده **ثعلباً** (**لوقا ١٣ : ٣٢**) . أليس هذا عملاً سياسياً ، ولا سيما انه كان جواباً عن تهديد هيرودس له بالقتل .

لم تكن الاستكانة شأن يسوع . لقد طهر الهيكل بالسياط من الصيارفة وباعة الحمام . وعرفت نفسه الوديعة غضباً مقدساً . لكن ثورته ، جملة ، كانت اعمق من ان يعبر العنف الخارجي عنها . اجل لقد اتخذ التاريخ يسوع معلماً للاّعنف حسب قوله في بستان الزيتون : « **اغمد سيفك ، فمن يأخذ بالسيف بالسيف يهلك** » . (**متى ١٦ : ٥٢**) . هذا الموقف كان تغييراً جذرياً بالنسبة الى كل تراث امكن المسيح ان يكون متصلاً به تاريخياً . وتحريم استعمال السيف متعلق بارادته الفداء . السياق سياق ذبيحة وموت فدية ، والعمل يقتضي اللطف والتواضع الكاملين ، والتذلل امام الانسان . النفس هنا تعنف ذاتها . في سياق آخر ، في اطار التغيير الجذري لأوضاع شعب في زمن معين، قد يكون موضوع العنف مفتوحاً . اللاهوت المعاصر في مواجهة لهذه المشكلة .

اذا لم يخض المسيح بحر العمل السياسي المباشر فانه معلم سياسي مداورة . فقد ألقى بذار الثورة الاجتماعية . هذا التأكيد لا يمكن استنتاجه نصاً وبصورة مباشرة من تأمل الكتاب . ليس في العهد الجديد دعوة صريحة الى انتهاج سياسة معينة . لكن الثورة الاجتماعية روح قبل كل شيء ، توق الى العدالة .

صحيح ان العدالة هي عدالة الملكوت وأن وعد الفقراء هو ملكوت الله (**لوقا ٦ : ٢٠**) . والعلماء يعتبرون ان الشرعة الادبية التي خرجت من فم السيد هي التي نقرؤها في لوقا ، فالاصل يكون عندئذ : « **طوباكم ايها المساكين** » لا «**طوبى للمساكين بالروح**» كما وردت عند متى (**٥:٣**). فالملكوت المنتظر هو **لفقراء الحال** للجياع مادياً (**لوقا ٦: ٢١**)، وليس وحسب ، للجياع والعطاش الى البر (**متى ٥ : ٦**) . الانجيل الأول يروحن الدعوة . المحرومون من حيث هم كذلك وحّد المسيح مصيره بمصيرهم . هم المزكّون ، الأفضلون . هذا خط نبوي يبتدىء **بعاموص** وينتهي **بيعقوب** اسقف اورشليم القائل : « **اما اختار الله فقراء هذا العالم اغنياء في الايمان وورثة الملكوت** » (**٢ : ٥**) . كذلك عند بولس: « **اختار الله ضعفاء العالم ليخزي الاقوياء** »(**١كورنثوس ١:٢٧**).
نحن اذن ، امام تقليد فقْري انجيلي ورسولي أثمر عند آباء الكنيسة الكبار في القرنين الرابع والخامس . ليس من حديث عند **يعقوب** والآباء عن تعزية للفقراء بالملكوت الآتي . الدعوة تتحول الى وصية ، الى امر . كنيسة **باسيليوس في كبادوكيا** تتغير فعلاً وتصبح مسرحاً لعمل اجتماعي كبير . كان هذا الموقف العيسوي مناقضاً للصدوقيين الأغنياء ومناقضاً للسلوك الفريسي القائم على احتقار « **أهل الارض** » اي الملاصقين للتراب كما كانوا يسمّون . كان هذا بالطبع مقاومة صارخة للترف الروماني . عندنا هنا دعوة يحملها قوم ليس لهم نصيب يذكر من الثقافة اليونانية وهم ، بالمقياس الأرسطوي ، برابرة . يسوع يلح على ان هؤلاء هم الذين سيتقلدون زمام الأمور في بث الدعوة . « **لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا احذية ولا عصا** » (**متى ١٠ : ٩-١٠**). الفاعلية في الكلمة وحدها . فمن ادعى ان في « **الحكمة الانسانية** » قوة فقد مال عن « **برهان الروح** » (**١ كورنثوس ٢ : ٤**).
الانطلاقة الأولى رفض لما كانت حضارة البحر المتوسط تعتمده سبيلاً للفلاح بل تنكر للمضمون العقلي لهذا التراث . فيما بعد كان لا بدّ لآباء الكنيسة ان يتبنوا لغة الفلسفة ليدافعوا عن الايمان ولكن المضمون العقدي في كنيسة القرون الاولى بقي انجيلياً . المضمون الشرحي ، التعليمي ظل كذلك انجيلياً في كنيسة المشارقة حتى يومنا هذا. وفي النصرانية كلها نشهد حيناً بعد حين عودة الى هذه البساطة الاولى . البعث الفقري ، التأكيد على كرامة المساكين حركة تعهدها الكنيسة فترة بعد فترة . العهد الجديد نار تحت رماد .

ARCHIVE http://Archive.Sakhrit.com

التساؤل الشرعي الذي يتبادر الى الذهن هو ما معنى ثورية هذه الدعوة الى الفقر في عصر لا يعيش في ظل الاقتصاد الزراعي ، وحل مشكلاته في الغنى لا في الفقر ؟ العظة على الجبل اذن نصّ بال ؟ الفقر الكامل لا نجده في الانجيل سوى نير موضوع على الذين دعوا الى حمل الدعوة . انه شرط من شروطها الأساسية . اي ان الفقر شهادة اذا اختير من اجل الانجيل . والملكوت يحققه الشهود أولاً . والشهادة مهماز. انها امامنا لكي يكون « **الذين يشترون كأنهم لا يملكون** » (**١ كورنثوس ٧ : ٣٠**) ،ليعرفوا ان من « **اشتري بثمن** » لا يستعبد لما يملكه .

المال ، في افضل حال، أداة . أداة خطرة جداً . المهم الا يدخل الى القلب، ألا نتبناه . شيء هو على طريقنا ولكن السعي بعيد . في الأمور الصميمية لا ينفعنا شيئاً . مسخّر هو للعطاء لكنه ليس العطاء . الروح وحدها تعطى للروح . المسيح في سعي الى الانسان ، الى ان يكتشف هذا انه قائم بما وضعه الله فيه من نعمة وفرح لا بما تقدر ان تناله يده . والانسان يقوم اذا لم يتبعثر ، اذا لم يبدده شيء خارج عنه . هذا في النهاية تعليم عن صمود الانسان ، عن كينونة الانسان . هذا لا يعني الفردية . لا يعني الانسان المنعزل القائم وحده ازاء الآخرين . الصمود البشري يتطلب الشراكة الانسانية الواسعة . وهذا هو بُعد المحبة في العهد الجديد .

الشخص ، في اعماقه ، كل شيء ، في تلك الاعماق التي يجد فيها نفسه ويكون فيها نفسه . وحتى يتحقق ذلك ينبغي ان يقاوم المؤمن « **تقاليد الناس** » ، كل تحكم للدينيين بالناس وان يتجاوز الحلال الذي لا يكفي ، اي ان يترك الدين الخارجي السطحي ، التصلب في الشريعة ولو إلهية . الألوهة تفوق الحرف الذي يحاول الناس حصرها به . ولعل مصير يسوع المأساوي كان كله في انه احب الحقيقة على حرفية الناموس فاضطهده حفظة الشريعة وقتلوه . ازاء هؤلاء المترمتين يبدو المسيح « **خمرة جديدة لا توضع في زقاق قديمة** » (**متى ٩ : ٦٧**) . كيف انشقت زقاق التحجر الناموسي امام تعليمه ؟

المسيح مطيع كلياً تجاه الشريعة . اما من جهة تفسيرها البشري والافتاء الذي نشأ حولها ، فيسوع مرتبط بغائية الشريعة اعني خدمة الانسان . الحركة الدينية المحافظة ، أي الحركة الفريسية يحيد عنها فيما لا يراه وحياً .

هكذا يصطدم ، منذ أوائل بشارته ،بهذا التيار : «**ومر يسوع في السبت خلال المزارع ، فأخذ تلاميذه يقلعون السنبل وهم سائرون . فقال له الفريسيون : انظر ! لماذا يفعلون في السبت ما لا يحل ؟**» اي لا يحل في تقليد شيوخ الشعب وليس في الشريعة — الى ان قال في اخر النقاش : « **ان السبت جعل للانسان ، وما جعل الانسان للسبت .فابن الانسان سيد السبت ايضاً** » (مرقس ٢ : ٢٣ — ٢٨) . وكانت هذه بداية المؤامرة . هنا ينفصل المعلم كلياً عن تراث المعلمين في سبيل اعلاء الحق الإلهي وحده ويفتح في فهم الشريعة، كل شريعة ، افاقاً جديدة .

العظة على الجبل ، تتضمن هذا الموقف ، ولا سيما تلك العبارات الشهيرة : « **سمعتم انه قيل ... اما انا فأقول** » . ونحن أمام موقفين : موقف تجاوز الشريعة وموقف تعميقها الروحي . فمن كلماته البينات : « **سمعتم انه قيل : العين بالعين والسن** بالسن » . **اما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشرير . من لطمك على خدك الايمن ، فاعرض له الاخر ...** » (متى ٥ : ٣٨ — ٣٩) . ما معنى : « **اما انا فأقول لكم** » ازاء نص إلهي من سفر الخروج ؟ السيد لا ينقض القول ولا ينكر وحيه ولكنه ينقلنا الى موقف روحي يجعل هذا القول غير ذي موضوع . « **العين** بالعين » موقف قانوني **يشيء** الانسان فيه انساناً آخر ، يجعل عين هذا الأخير مساوية لعينه اذ يتعادل قلع هذه وقلع تلك . لكن اذا رأيت ان الشر الذي اقترفه الآخر يؤذيه وان هذا الشر بالتالي يجعلني قريباً اليه ويضعني في موقف الطبيب تجاهه يكون همي — ولو قلعت عيني — ان أرفع عنه الأذى ، ان أتجاوز انا شره لكي يتجاوز هو نفسه ونكون — فوق اعتبار جسدينا المشوهين — في مواجهة انسانية خلاقة . الشريعة جعلت للفجّار الذين **لم تطلّ عليهم انوار** الملكوت . اما الذين قبلوا شرعة الحب فقد أدركوا الغاية التي من اجلها كانت الشريعة .

اما الموقف الثاني فهو موقف التعميق الروحي للناموس . «**سمعتم انه قيل : لا تزن** » . **اما أنا فأقول لكم :من نظر الى امرأة ليشتهيها زنى بها في قلبه** » (متى ٥ : ٢٧ —٢٨) . ليس هاجس يسوع ان يمحو الضرر الظاهر ، ان يرتب العلاقات العائلية بل ان يطهر الانسان من الأهواء التي تبعث الى المعصية . «**الشهوة اذا حبلت تلد خطية** » (يعقوب ١ : ١٥) . الحياة كلها في القلب ولهذا كان النضال الروحي في المسيحية عبر الأجيال يهدف الى تلطيف الداخل

بالوداعة والتواضع والبساطة وما اليها من مكارم الانجيل .

واذا كان القلب مركز الوجود فقد ارتفعت دينونـــة الانسان للانسان ولم يبق من قياس خارجي لأعمالنا . كلمات الصلاة وكميتهـــا لا تعني شيئاً (متى ٦ : ٧ و٧ : ٢١) . الكرم المكشوف ، الصوم الظاهري (متى ٦ : ١ و١٦) لا قيمة لهما. حادثة المرأة التي أخذت في زنى (يوحنا ٨ : ١ – ١١) تكشف لنا ان معيار الخطايا عنده ليس معيار الكتبة والفريسيين . هؤلاء ناس اعفـــاء جسدياً ومع ذلك قال لهم : « **من منكم بلا خطيئة ، فليتقدم ويرمها بحجر** » . ولكن الذي قال عن نفسه ، في موضع آخر : « **من منكم يستطيـع ان يثبت علي خطيئة** » (يوحنا ٨ : ٤٦) ، يقول للمرأة : (**وانا لا احكم عليك . اذهبي ولا تعودي الى الخطيئة** » . اعماق الكيان لله وحده . حسبنـــا نحن ان نحب عسى المحبة ان تشفي المنكسرة قلوبهم .

تأكد المسيـح ذلك طيلة حياته حول هذه الحياة مستحيلة عليه . « **الويـل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون ، انتم اشبه بالقبور المكلسة ، يبــدو ظاهرها جميلا ، واما باطنها فممتلىء من عظام الموتى وكل نجاسة . وانتم كذلك، تبــدون في ظاهركم للناس أبراراً ، واما باطنكم فممتلىء رياء وفسقـــاً** » (متى ٢٣ : ٢٧ –٢٨) بُعيد هذا الكلام ، يخاطب اورشليم « **قاتلة الأنبياء** » وكأنه احس بدنو اجله .

فاذا كان كل شيء ينبـع من الداخل لا بد من ان تنهار الحواجز القائمة بـين امة وامة ، بين اليهودي والأممي ، بين الرجل والمرأة . لقد تم كل ذلك بالقـدر الذي **تمكنت روح يسوع من الانسانية** . ليس المهم ، لتقرير الأثر الانجيلي ، ان نسأل عن هوية الحركة التي قامت بهذا التحرير او ذاك . وقد لا يكون الدعاة انفسهم واعين للنفوذ الانجيلي الذي حـــل بهم ولكن الروح سرت في حضارة الناس وكتب للزرع ان ينمو في حينه .

ان الحديث في فذوذية الإنجيل ليس كل شيء . فقد يجد الباحثون ، هنـــا وهناك ، آيات متشابهات . وقد انساب الإنجيل في غير مجرى . فذوذية الآداب الإنجيلية عرضة للمناقشة علماً بأن المحبة لانجدها في شموها وعمقها ولا شروطيتها في أي تراث آخر ، حتى في الهند . الشفقة على الكائن الحي والاندماج بالكائن الحي في حيز الهندوقية شيء والمحبة العيسوية التي تلتزم الوجود وتُفيض العمل

الصالح شيء آخر . أجـل بلغت الصوفية الاسلامية قمة المحبة لكن الصوفية اقتفت واعية آثار المسيح. الفذوذية الكاملة في ثورة المسيح لاتدرك الا بالإضافة الى شخصه . شخصيته هي التعبير الأكمل عن تراثه حتى ليمكن القول انه جسد تعليمه تجسيداً كاملا بحيث لا نتبين فاصلاً بين سيرته وتعليمه. « **احبوا اعداءكم ، باركو لاعنيكم** » ، هذا كله حسن ولكن شيئاً منه مزروع هنا وهناك في تعاليم روحية كثيرة . الفرادة في هذا : « **وصية جديدة انا اعطيكم ان تحبوا بعضكم بعضاً . كما احببتكم انا تحبون انتم ايضاً بعضكم بعضاً** » (يوحنا ١٣ : ٣٤) . الفرادة ليست في تعليم المحبة بل في الكاف(كما احببتكم) ،في الحب الذي صار موتاً . نحن لسنا امام اقوال في العطاء خلابة ، في دغدغة انجيل طوباوي . لا تسحرنا « **روحانية** » بعيدة عن الادراك ولا تمس واقعنا . لا ، يسوع يقول : « **انا ذاهب لأعد لكم مكاناً . لتكونوا حيث اكون** » (يوحنا ١٤ : ٢ ـ ٣) هذ امر حاصل. القضية لم تبق معرفة، رقية صوفية، مذهباً من مذاهب الكون. الطريق ليس في كلمات نطق بها الناصري ولا في نظام طقوسي وضعه ولا في شريعة اخرى نطمئن اليها .

كل فكر يضاف الى السلوك الذي سلكه : « **انا هو الطريق والحق والحياة** ». تعالوا اذن وانظروا .لن تفهموا كل شيء اذا تلوتم الانجيل. المهم ان تصبحوا انتم انجيلاً حياً ، حقاً معاشا . لا النظرية وحسب ، وحتى لا النظرية الدينية نفسها . لن ينقذكم شيء خارج عنكم ، لن ينجيكم المسيح خارجاً عنكم . الانسان المحب ، **الانسان ـ الذبيحة هو الثورة** . المسيح لذلك مقلق للثورات التي تتحول الى نظريات مكتفية ، الى انظمة نهائية ، الى اشكال يفنى فيها الشخص .واذا كان الناصري عدو الميراثية فهو كذلك عدو للثورية المتخفية، للثورية الألفاظية . **المسيح حركة تنقل وجودنا من الوضع الى المعنى** .

بولس الخوري

تأملات في معنى الوحي

بحسب نظرة تكيينية (من الكيان) عفويّـــة ، يتضمن المفهـــوم المعقد للوحي مُوحياً، ومُوحى، وموحًى اليه وفعل الوحي ذاته. الموحي، بمعنى المبدع او الينبوع الذي له سلطة بذاته ، هو الله ، كسيد كلي القدرة ، كعلم كلي خير . المستفيد من الوحي هو الانسان الجمعي والفردي في آن. الموحَى هو مجموعة معتقدات تُعلن وشريعة يُسلك بموجبها ، وطقس يُمارس . المعتقدات تختص بالله ذاته ، بقدر ما تبقى ألوهته ، وان تجلت ، فيما وراء كل تصور انساني . معتقدات اخرى تختص ببداية الانسان والعالم ونهايتهما ، بمعنى الخلق والمصير والتاريخ . وتعبّر الشرائع عن ارادة إله فائقة الحكمة ، يوجـــه البشر بأوامره في دروب العدالة والاصالة والحياة الانسانية الحقة . وتفصح اشكال العبادة عن القابليات التي تُتلقى بها عطية الله : صيام التقشف ، صلاة التعبد ، إحسان الأخوة، تضحية المشاركة الاخوية من اجل اتحاد الكل ككل مع الله . ويأخذ فعل الوحي ثلاثة اشكال متدرجة الوضوح: يتراءى الإلهي عبر الكائنات المخلوقة وتتابع الأحداث ، أو يتكلم الله ويفصح عن نفسه ، مُلهماً الانبياء أو مملياً عليهم تعاليمه بوساطة ملاكه . هكـــذا تؤلف **الكتب** ، من حيث أنها كلام ، أفضل ايضاح للمعنى المنقول ، وتؤلف من حيث انهـــا كلام مكتوب ، معنى يمكن نقله بامانة أوثق الى جميع الأجيـــال ، أو يتجلى الله اخـــيراً بشخصه : فحين يصبح شخصاً مرئياً ، يقترب من الانسان مجتازاً الوساطة الأخيرة والمسافة التي يمثلها الكلام .

ان الوضع المتناقض الذي يوحيه مثل هذا المفهوم للوحي ، انما هو ثنائيـــة

قطبين قائمة في العلاقة بينهما ذاتها. ثنائية الطبيعي وما فوق الطبيعي ، غيرية مطلقة تفصل الانساني عن الإلهي في حين تربط بينهما صلات الخلق والكلمة والوجود المشترك في شخص واحد . لا يفقد الله تعاليه حتى حين ينخرط ، بملء مشيئته ، في أشكال الحلول هذه . فالله والإنسان ، وان اتحدا في الواقع ، يبقيان متمايزين في الفكر وفي الواقع .

من هنا مميزات الوحي وشروط امكانه . انه ، كوساطة ، يشارك في خصائص قطبين يصل فيما بينهما . انه ، اذن ، من المطلق ومن التاريخ في آن . ثمة خاصية شمول للعالم اوحت بأبديته ووحدته مع الله . ويبدو الله بالضرورة معنياً بتاريخ عالم خلقه لنفسه : فأن يصير الله انساناً ، أو يتكلم ، او يخلق وحسب ، يعني انه يصير ، بمعنىً ما ، تاريخياً . ما يجعل الوحي ممكناً هو ، إذن ، تنازل الله صوب الإنسان وتصاعد الإنسان صوب الله . ان الحد الأقصى لهذه العملية ، هو كائن يصير ، في آن ، الإنسان والله .

*

لماذا الوحي ؟ ان غائيته الإلهية لَسِر . وغائيته الإنسانية الدنيوية لا تشكل التعبير الشامل عن الغائية الإلهية . انها تتحد في مظاهر الوحي التي تختص بالانسان والعالم . ان كان الإله موجوداً ، خالق الإنسان والعالم ، فلا يعود ممكناً تحديد الانسان والعالم الا بنموذج العلاقة التي تشدّهما الى الإله ، وتمنحهما بالتالي الكينونة ، فان الطريقة الوحيدة لوجود النسبيّ ، هي علاقته بالمطلق . وبما ان الصلة بالمطلق هي بذاتها غير ممكنة للنسبي ، فان الوحي الذي يفصح عن هذه الصلة يصبح الشرط الضروري للكائن — الإنسان ، والكائن — العالم . وهو رحمة وفضل من الله الذي يبقى ، وان خلق حراً .

ان عطية الوحي تستدعي أخلاقيّة الأمانة . فالموحَى يجب ان يؤخذ كعطية ، ويحفظ كوديعة . ان هناك خطراً مزدوجاً يجعل من الأمانة فضيلة صعبة : يمكن ان يكون المودَع غير قادر وغير جدير ، وأن تكون تأديته مفسدة . هذا الخطر يعكس الصفة المزدوجة للوحي ، بما هو مطلق وتاريخيّ : المحافظة عليه كمطلق والحيلولة دون نموه التاريخي ، او ادراجه في التاريخ واضاعة مقياس التميز . ذلك هو الشكل المزدوج لعدم الأمانة الممكنة لما يوحَى : منعه من الحياة ، أو اضاعته .

يبقى ان نحوّل هذه النظرة التكيينيّة الى الواقع . كيف نعرف الوحي ؟

ما هو الكتاب المنزل؟من النبي؟اي انسان هو الله ؟ما دام الوحي شيئاً فوق الطبيعي فلا يعرف بالحواس ولا العقل الطبيعي ولا الارادة الانسانية ، وانما يعرف بعين الإيمان ، بذوق يعطيه الله ذاتـــه للانسان حين يبادر فيتجلى له . وبما ان الموحى اليه هو الإنسان الجمعي والفردي في آن ، فان الايمان يستقيم ويصفو بالفعل المتبادل بين الدعوات النبوية والنظام الديني الجماعي . ان الجماعـــة هي التي تُقر الكتب المنزلة ، والأنبياء الملهمين ، والله في تجلياته .

حين تتنافس جماعات مؤمنة وأديان ، لا يقبل النـــاس الا ايماناً حقاً بإله حق ، إلا ديناً أوحي حقاً . هذا الدين الحق هو ، لكل فرد ، ايمان جماعته ودين تراثه ، أما الآخرون فما ايمانهم سوى تعلق بشري بنظم مجموعاتهم ، وما دينهم سوى طقس تقليدي يعبر عن الشوق الطبيعي الى الله .ويشكل هذا التعلق البشري وهذ الشوق الطبيعي ، في أحسن حالاتهما ، استعداداً للانفتاح وقبول الوديعة المنزلة الحقيقية التي على الشعب المختار ان يوصلها الى جميع الشعوب . لكن ما دام الحق لا يقبل درجات فان ايماناً بشرياً كهذا ، وديناً طبيعياً كهذا لا يعتبران حقيقيين . ان اخلاقية النية الحسنة لا تحل محل الدين الحقيقي ، أي محل الوحي ، لأن الرغبة البشرية شيء والمبادرة الالهية شيء آخر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

*

ان الضعف في نظرة كهذه يكمن في اكثار الاستنتاجات وتعقيد النظرية بحيث يظن ان فيها علاجاً لهشاشة المقياس.وبيّن انه اذا كان هذا المفهوم للوحي متميزاً بحيث يصح اتخاذه مقياساً عينياً فلن تكون هناك أديان متباينة متخاصمة يدعي كل منها أنه هو ، لا غيره ، الوحي الحق . هذا يعني أن النظرة الدينية لا تستنفد العقلانية الدينيـــة ، وأن الجوهر الديني يهم كيان الانسان بكليته ، فلا تستغرقه المعرفة ، وانما هو قضية وجود . من هنا عدم جدوى المقاييس ، اذ ليس هنا ما يمكن التحقق منه ، ومن هنا كذلك مفهوم الحقيقة الدينية التي لا تعود تتميز بالموضوعية والكلية .

الحقيقة هنا تقوم لا في ميزة خاصة لعبـــارات تريد أن تقول ما هـــو موجـــود . انهـــا تعني ، للكائن ، أن يصير ما ينبغي أن يكون ، ان يسعى ليتطابق مع الكلية الموحّدة لما يكونه . أن نثبت الله هو ان نضع أن الحقيقة دينية وحسب ، وان الانسان لا يأصل الا بنوع من تجربة الإلهي حيث يتجلى له معناه . ان ظهور المعنى يعلن عملية التأصيل الذي تسمّيه الأديان

خلاصاً . ان خطيئة اللا أصالة ، او الإغتراب،تُغلَّب حين يبدأ التحرر بالعودة أو الإهتداء الى الله بما هو المعنى .

المعنى هو في آن السبب والغاية ، البنية والوظيفة ؛ إنه علة الوجود أو اللوغوس الذي يمنح لما يتأسس هكذا نوعاً من الضرورة . والمعنى ، من حيث هو قيمة ، ليس موضوعياً خالصاً ولا ذاتياً خالصاً ؛ انه ما دون التمييز الذي يجزئه الى قصد ومقصود، الى نيّة و"منوي" وما فوقه. ان نقول الله معنى ليس أكثر صحة من القول انه كائن اسمى ، عدم ، خير ، واحد ، مطلق . يعني عَنْيه ، اعني وضعه قطبا تتجه نحوه النية أو القصد الانساني ، لا حداً . من هنا تتلاشى الصور التي تجعل منه كائناً ، شيئاً او شخصاً . من هنا كذلك يوضع كأنه فيما بعد وضمن ؛ كأنه هنا ودوماً يُبحث عنه .

تصور الله كمعنى هو التوكيد على أنه في قلب الوحي ، بمعنى أنه موحى أكثر مما هو موحٍ ؛ فالله ليس الموحي لمعتقداتنا وشرائعنا . فالقول انه يوحيها سقوط في شرك التكيينية (المذهب التكييني) Ontologisme : ينسب الى الله ، بحجة الايمان ، ما تظهره الوقائع عملا من اعمال الانسان . الأديان هي ، في أحسن وجه ، التعبير عن الكيفية التي ينظم بها البشر تجربتهم للآلهي أو يعبرون عن قصدهم الله . فالناس يبدعون تصورات وقواعد وفقاً لمقتضيات وجودهم : ذلك هو تجلي حريتهم الخلاقة المشروطة بما تمكن تسميته طبيعتهم . القواعد ، التصورات ، الأديان ، ليست لها ، اذن ، الصفة المطلقة التي يوصف بها وحي منزل من الله . إنها ، جوهرياً ، نسبية من حيث أنها ثمرة الجهد الانساني ومن حيث أنها وسائط الى الله . وهكذا فان الوجود والتاريخ الانسانيين هما اللذان يوحيان الله من حيث انه المعنى المقصود .

ان يكون المعنى موحى ، لا يعني أنه ينبثق في ذاتية أو يجيء الى ذاتية كأنه معطى ، اذا زعمنا اننا بهذا الانبثاق او هذه العطية نطبّعن Naturaliser المعنى او نحيّد Neutraliser الانسان .

فان يكون المعنى موحى هو أن يكون ، في آن ، مقروءاً ومعطى : ان نصاً أو نبياً ، لا يقدر أن يعطي المعنى ما لم يقرأ وما لم يُؤيَّد من ثَمّ النبي والنص . وكونه قرىء وأعطي ، يعني أنه أسس ، يعني أن وجودي وجوده .

الانسان لا يحتاج ، من أجل تقنية حياته ، الى الله . لكنه ، لكي يوجد محتاج اليه . ويستحيل عليه ان يكتفي بنسبية التقنيات ، ويتخلى عن أن يعيش معنى . انه يرفض ان يكون نافلاً ، ويريد أن يكون ضرورياً : انه يبحث عن معنى ، يضعه فيما وراء سلسلة نسبيّاته الخاصة . ان وجود المعنى كمقتضى كياني هو ، حصراً ، التجربة الدينية التي تعاش على نمط الحدّ المتجاوَز .

ان كان الله موجوداً ويتجلى ، فذلك اذن على غرار المعنى الذي يؤصّل وجوداً والذي هو ، في آن ، هذا الوجود نفسه وغيره. لأنه نفسه ، نصل الى حد صهره بتاريخ البشر . ولأنه غيره ، نريد ان يكون معطى كنظام . انه في التاريخ ، لكن كشريعة للتاريخ ودينونة . انه يُتكَلَّم بلغة الانسان ، لكن كما يُتكلم ما لا يمكن أن يقال . ولئن كان المعنى الوجود ذاته وغيره ، فانه في صميم كل وجود انساني ، كمقتضى خلاق .

بهذا المعنى ، كل انسان هو انسان ايمان .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مكسيم رودنسون

الفكر العربي امام الثورة

منذ أقل من قرنين ، سيطرت على البشرية فكرة جديدة ، هي فكرة الثورة . لا شك أن هذه الفكرة كانت موجودة من قبل ، بأشكال متنوعة ، في مجتمعات عديدة ، وبخاصة المجتمع الاسلامي ، كما سأبيّن في هذا المقال . غير أنها اكتسبت بعد الثورة الاميركية ، وثورة ١٧٨٩ الفرنسية ، قوة وحيوية جديدتين ، لا مجال لمقارنتها بما كانتا عليه في السابق . فقد احتلت فكرة النجاة الجماعية بالنسبة الى كثيرين في العالم ، محل فكرة النجاة الفردية ، فكرة الخلاص . ولقد جعلت مختلف الدراسات الايديولوجية النيوماركسية ، التي جمعت أفكار ماركس وبعض العناصر الأخرى ، من مفهوم الخلاص الجماعي نقطة أساسية في ايديولوجيتها ، وقدمتها الى انصارها على انها القيمة الأخلاقية الجوهرية . وتجاوز تأييد الفكرة حدود المنظمات الماركسية الجديدة التي توليها اهتماماً عظيماً . واستقبلت بحماسة كبيرة في العالم الثالث كله .

نستطيع تحليل فكرة الثورة على النحو الآتي :

١ – يمكن تغيير العالم جذرياً ، ويجب القيام بذلك ، لأن الوضع الذي نحياه مستحيل . يجب تحقيق مجتمع أفضل ، بشكل جذري ، مجتمع يعتبر ، بفضل قفزة منطقية شائعة ، أفضل المجتمعات . ويتم هذا باعادة تكوين البنية السياسية أو الاجتماعية ، أو السياسية الاجتماعية .

٢ – يجب أن يكون التغير جذرياً حتى يكون مجدياً .

٣ - يمكن استخدام العنف ، بل يجب استخدامه ، نظراً للأهمية العظيمة التي تحتلها الثورة ، عند فئة اجتماعية أو قومية معينة ، أو عند المجتمع كله .

تتعارض فكرة الثورة اذن مع فكرة الاصلاح ،وخاصة فيما يتعلق بالاهداف الاجتماعية . لقد خافت البشرية ، خلال مدة طويلة جداً ، من التغيير ، كما أظهر ميرسيا ايلياد Mircea Eliade ، وحاولت بكل الوسائل الممكنة ، بالابنية الاجتماعية والسياسية ، وبالطقوس ، أن تحمي نفسها منه . قلما تؤكَّد فكرة المحافظة هذه ، بهذا الوضوح كله ،بل انها تتخذ ، بصورة عامة ، شكل النزعة الاصلاحية ، أي التأكيد على انه يمكن تحسين المجتمع،حتى وان كان كثير العلل ، بسلسلة من التغييرات غير الجذرية وغير العنيفة . وهكذا يمكننا ، بتوفير ضحايا العنف وأضراره ، أن نعطي صيغة الاصلاح قيمة خلقية مثالية لا تتصف بها فكرة الثورة .

ان فكرة الثورة تتعارض كذلك مع جميع المفاهيم التي تعتبر أن ما يهمّ الانسان ليس الوضع الاجتماعي ولا البنية السياسية - الاجتماعية . ويعتبر الكثيرون ، منذ زمن بعيد وحتى الآن ، أن المهم ليس تغيير المجتمع بل تغيير الانسان . ويعلن غير الثوريين ، من المنادين بهذه الفكرة ، أن الانسان قابل للتغيير في أي مجتمع كان ، أو على الأقل ، في المجتمعات التي نعرفها . ويرى آخرون أن المهم هو أن يحيا الانسان حياة متناغمة . ويرون ، اذا لم يكونوا ثوريين ، أن حياة كهذه ممكنة في المجتمع الحاضر . ويرى آخرون ، أو هؤلاء أنفسهم ،أن المهمّ خدمة الله ؛ ويرون اذا لم يكونوا ثوريين ، أن الله لا يطلب من الانسان أن يخلق مجتمعاً أفضل .

يعارض الثوريون هذه المفاهيم كلها بسخرية وغضب . ويهاجمون المثل الاعلى للمحافظة ، ويشددون على ان المجتمع الحاضر مليء بالعلل والظلم وانعدام المساواة الأساسية والاضطهاد . لذلك كانت ارادة المحافظة عليه تجعل من الانسان شريكاً للظلم والاضطهاد والعنف الذي يشتمل عليه المجتمع ، في بنيته الداخلية . لهذا كانت ارادة التغيير بوساطة الاصلاحات غير العنيفة تعني التردد أمام الوسائل الحيوية لتغييره ، أي تقييد اليدين والقدمين ، والتساهل مع الذين يريدون المحافظة على هذا المجتمع الظالم الاضطهادي ، لأهداف نفعية . ولا شك ان تغيير الانسان ضروري ، ولكن لا يمكن تغييره الا بمقدار ، طالما انّ

المجتمع ظالم اضطهادي . ثم ان تغيير قسم من البشر لا يعني القضاء على الاضطهاد والظلم . كما أن الحياة المتناغمة مستحيلة في المجتمع الحاضر . وقد تتمكن من الحصول عليها أقلية ولكن على حساب الاغلبية التي تستمر في معاناة الاضطهاد والظلم . وأخيراً ، يقول الثوريون المؤمنون بالله ،إنّ الله لا يمكن أن يريد المحافظة على مجتمع ظالم اضطهادي ، وانه لا يمكن الا ان يبارك الحركات التي سوف تغيره جذرياً ، في اتجاه افضل .

يجب ان نذكر هنا ان فكرة الثورة قديمة جداً في العالم الاسلامي ،وانها تنسجم مع العقيدة الاسلامية ، بخلاف العقيدة الدينية المسيحية . لقد بشرت المسيحية ، بشكل خاص ، بتحسين الانسان الفرد وبخدمة الله . فعلى الانسان جوهرياً ان يعمل لخلاصه . ولا تستبعد البنية الاجتماعية تماماً ، ولكنها تأتي بعد هذا المشروع الخاص بالانسان . اما الاسلام فقد اراد منذ البداية خلق مجتمع عادل ، واعلن أن بناء مجتمع كهذا ينسجم مع ارادة الله ، ويكون في خدمة الله . لا يطلب الله من الانسان ان يعمل لخلاصه الفردي وحسب ، ولكن ان يبني كذلك على الأرض المجتمع الذي يريده الله . ان الأفكار الثورية الأساسية الثلاث موجودة في الاسلام . فهو يرى أن العالم يمكن ويجب ان يغير جذرياً ، حين لا يكون منسجماً ، في بنيته السياسية الاجتماعية ، مع ارادة الله . ويرى أن التغيير يجب ان يكون جذرياً حتى يكون مجدياً . ويعلن ، منذ البداية ، بخلاف المسيحية ، انه يمكن ويجب استخدام العنف ، في هذه الحال . وتتحدد النظرة الى العالم المثالي الذي ستبنيه الثورة بمؤسسات سياسية ، كالخلافة مثلا ، وبتعليمات حقوقية ، كما في القرآن والسنة . لكنها لا تدعو الى بناء تكوين اجتماعي جديد ، شبيه بانماط المجتمع المعروفة في عصر النبي ، وبعده في العالم الاسلامي . وقد انحصرت مختلف الحركات الثورية في التاريخ الاسلامي التي أرادت اقامة المجتمع الذي يدعو اليه الاسلام ، في المطالبة بتطبيق الشريعة ، بشكل كامل صارم ، وكان يفترض في هذا التطبيق أن يلبي جميع الحاجات ، وأن يخلق بحكم جدواه الخاصة ، مجتمعاً عادلاً غير اضطهادي وغير استغلالي . كما كان يلاحظ بعد انتهاء هذه الثورات كلها ، أن المجتمع لم يتحسن ، بشكل جذري ؛ ولكن يُعلّل الفشل بخطأ القادة لا بخطأ التعاليم الاجتماعية للشريعة .

أما اليوم ، وفي أغلب البلاد الاسلامية ، فقد صارت النظرة الى المجتمع

الآتي بعد الثورة ، والنظرة الى الثورة نفسها علمانيتين ، ولكنهما صارتا كذلك سلبيتين ، بسبب الظروف التي تم فيها هذا التطور . فما يطالب به الثوريون هو التحرر وازالة السيطرة الاجنبية . هناك طبعاً مضمون ايجابي ، ورؤيا للمجتمع القومي المتحرر ، لكن هذه الرؤيا غير واضحة ، وتختلف ، على كل حال ، باختلاف الأشخاص والطبقات الاجتماعية والفئات . كما يظل هذا المضمون الايجابي مرتبطاً بمضمون النضال من اجل الاستقلال ، ومن اجل العدالة القومية وحرية التقرير تجاه الاستعمار .

نرى دائماً ان الصيغ التي حاولت تعريف المجتمع القومي الحر ، تحاذر شق الوحدة القومية . لقد ذكرت ، في مكان اخر ، عبارة كتبها **جمال عبد الناصر** في كتابه الصغير « **فلسفة الثورة** » ، وتبدو لي معبرة جداً . يصرح **عبد الناصر** ،بتأثير الفكر الماركسي : أمامنا ثورتان ، واحدة قومية ، والثانية اجتماعية . لكنه يصف الأولى بأحسن الأوصاف . فهي نضال ينمي الغيرية والأخوة والعواطف الفاضلة ، في حين ان الثانية ، عند ضرورتها (ويقول آسفاً انها ضرورية) تنمي الأنانية والحقد ، وباختصار ، العواطف الدّنيا ، بين أشقاء الوطن الواحد .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لنلاحظ التناقض الجذري بين هذه النظرة والنظرة الماركسية ، التي تصف الصراع بين الطبقات ، داخل الأمة ، بأحسن الصفات ، في حين تستهجن الصراع بين المجموعات العنصرية ، وبين الأمم ، لأنه يؤدي الى تناحر اخوة توحدهم ، مبدئياً ، شروط اجتماعية واحدة . كما أن رؤيا المجتمع القومي تحاذر أن تنفصل عن القيم التقليدية التي اعتمد عليها النضال من اجل الاستقلال . ونلاحظ هنا ان هذه المفاهيم تدعم القوميين المحافظين ، بل الرجعيين ، لأنهم أمام كل محاولة اصلاح ،مهما كانت بسيطة ، وأمام كل محاولة ثورة او شبه ثورة ، يستندون الى القيم التي يعترف بها الثوريون القوميون أنفسهم ، لمحاربة اعمالهم واتهامهم بشق الوحدة القومية ،وبرفض القيم التقليدية التي كانت سائدة والتي لم يجرؤ هؤلاء القوميون على محاربتها فعلا .

لنطرح الآن سؤالاً رئيسياً . هل الايديولوجية الثورية ، الايديولوجية التي تضع فكرة الثورة في رأس القيم ، مفيدة ؟ وهل هي ضرورية ؟ لا اريد ان أبحث هذه المسألة على النطاق العالمي ، فهي تثير العديد من المناقشات والكثير من التردد . سأقصر كلامي هنا على المجتمع العربي . ان دحض فكرة الثورة

فيه ، وفي مجتمعات العالم الثالث الاخرى ، يبدو صعباً جداً ، حتى ان امكن دحضها بشكل عام . فمن الواضح ان المجتمع العربي يصطدم في جهوده من اجل التحديث -- الذي يوجب الاستقلال ، وحرية التقرير ، والمساواة مع الأمم الأكثر تطوراً -- بعقبة تقاليد المجتمع القديم . ألاحظ هنا واقعاً أكيداً ، وعلى أي حال ، واقعاً تحدث عنه أكثر مثقفي الدول العربية ، والدول الاسلامية بشكل عام . فمن الواضح الآن مثلاً أن تأميم وسائل الانتاج لا يكفي لضمان نجاح الجهود المبذولة من أجل التحديث ، وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها ، على ما يبدو لي ، هو أن التأميم يخلق بيروقراطية ترتكز سلطتها على التقاليد ، وتدافع بشراسة عن المناصب التي حازت عليها ، وترفض وصول الجماهير الى السلطة ، في حين أنها عاجزة تماماً . ومن الواضح كذلك أن دعوتها الى التمسك بالتقاليد يزيد من احتكارها وسلطتها . كما ان الايديولوجية القومية ، حتى اذا كانت ضرورية في النضال ضد السيطرة الأجنبية ، تشارك في الفترة اللاحقة ، بشكل خاص ، في تقديس التقاليد ، وذلك باعطائها طابعاً قومياً يصعب رفضه على الثوريين ، وحتى على الاصلاحيين المخلصين للايديولوجية القومية . تستطيع المجتمعات العربية ، بالتأكيد ، أن تتطور بطريق الاصلاحات . فالاصلاحات المقترحة ، او المطبقة فعلاً ، هنا وهناك ، مفيدة جداً ، ولكنها تصطدم بالمعضلة التي تصطدم بها كل سياسة اصلاحية . ان المصلحين هم المنتفعون من الوضع الراهن ، وليس من مصلحتهم ، بالتالي ، أن يقوموا بالاصلاحات الا ضمن النطاق الذي لا تتهدد فيه مصالحهم . وتبيّن التجربة التاريخية ان الطبقات القائدة لا تقرر القيام باصلاحات عميقة حقاً الا اذا أحسّت بخوف كبير . هكذا كان وضع انكلترا في القرن التاسع عشر ، حين كانت خائفة من ثورة على الطريقة الفرنسية . فمن الضروري اذن وجود الايديولوجية الثورية الحقة ، في البلاد العربية ، بشكل خاص .

ستكون النقطة الأخيرة في بحثي هذا ، هي توكيد الفروق الغامضة ، في أغلب الاحيان ، بين الايديولوجية والفكر ، -- وفيما يتعلق ببحثنا -- بين الايديولوجية السياسية والفكر الثوري . تصطدم السياسة الثورية بعراقيل حين لا تعتمد على جماهير مشبعة بالايديولوجية الثورية . وتضطر الفئات الثورية الى الاعتماد على قوى بعض قطاعات الجيش ، أو على أجهزة مسلحة أخرى . ولست بحاجة لاظهار مضارّ هذه السياسة للقارىء العربي . ان الايديولوجية

الثورية ، اذا كانت قيادة الحركات مصمّمة ، متنورة ، ذكية ، دافع عظيم الى الامام ، لانها تعبىء الجماهير ، وتستطيع ، بالتالي ، أن تصل الى نتائج بالغة الأهمية . واريد هنا ان اركز على نقطة يهملها الثوريون عادة ، والماركسيون منهم بوجه خاص ، رغم ان الفكر الماركسي (فكر ماركس نفسه) يوليها اهتماماً كبيراً : الايديولوجية ، وان تكن ثورية ، هي دائماً مشوّهة الى حد ما ، وهي تضلّل قليلاً او كثيراً . فلا بد ، من الناحية المثلى ، أن تكون منسجمة مع التطلعات الجماهيرية الحقيقية النابعة من واقع الجماهير نفسها . ويجب أن تؤدي الى حركة سياسية واضحة الأفق ، على المدى القصير ، والمتوسط ، والبعيد ؛ حركة تصاغ في تعليمات يمكن تطبيقها مباشرة ، ويمكن أن تتحقق بها نتائج ترضي الجماهير ، ولو جزئياً . ويجب ، وهذا صعب جداً ، أن تكون منسجمة مع الرؤيا الواقعية للأشياء ، ولا بد ، من جهة ثانية — بعد ان تكون قد تعرفت الى واقع الأشياء — ان تحتفظ بتطلعاتها لتجاوزه ، وبارادة تجاوزه ، وهذا ما يمنحها قيمتها كلها . ويجب أن تداور العراقيل التي قد تؤدي اليها الايديولوجية ، وان تتجاوز الايديولوجيات القديمة المسيطرة على الجماهير ، وذلك بفتح آفاق اوسع امام هذه الجماهير ، وان تتمسك بامكانية النقد الذاتي والتجاوز الذاتي . ولا فائدة من القول انه من النادر أن تنسجم الايديولوجية مع هذا المثل الأعلى ، وانه يكفي ألا يشوّه كثيراً .

ان على الايديولوجية الثورية العربية ، بشكل خاص ، ان تلبي تطلعات الجماهير العربية الأساسية ، أي ، كما اعتقد ، التطلع الى الاستقلال الكامل ، والى حرية التقرير ، ولكن بتجاوز حدود القومية الضيقة التي ترى غايتها القصوى في تحقيق قوة الشعب العربي ، دون اهتمام بالشعوب الأخرى التي قد تسيء اليها ارادة القوة هذه . ان عليها كذلك أن تلبي التطلع الأساسي الآخر ، **التحديث** ، اي في التحليل النهائي ، رفع مستوى المعيشة — الذي بدأ العرب يتحسسونه — لكن بصورة جذرية ، اي بتحطيم البُنى العميقة الضارة ، وايجاد بنى أخرى تناسب هذا التطلع .

هناك نقطة اخيرة أريد ان اوكّدها ، لانني اعتقد ان المثقفين العرب كثيراً ما ضاعوا في غياهبها ، ألا وهي ان الفكر يجب ألا يرتبط كلياً بالايديولوجية . من المعروف ان النظري الشيوعي الايطالي **غرامشي** قال : « **الحقيقة وحدها ثورية** » . وانا اعتقد ان كل فكر شريف ، يبحث عن الحقيقة ، هو ثوري في

جوهره ، لأنه يكشف ، بشكل طبيعي ، اهدافاً لا يمكن تحقيقها ، في التحليل النهائي ، الا بتكوين بُنى ً جذرية جديدة . وقد يؤدي ،وهو يؤدي عادة ، الى نتائج تجرّ سلسلة من التساؤلات الجذرية . على الفكر ان يكون نقدياً ، حتى الصرامة ،فلا اهمية للتنظير Théorisation اذا كان يخاف من التعرض للمحرّمات. وعلى الفكر ان لا يخاف من نقد الايديولوجية الثورية ، لأن هذا النقد يفيد الايديولوجية الثورية ،رغم انه يثير مشكلات عديدة. يجب أن يتوفّر هذا الشرط حتى تحتفظ الايديولوجية الثورية بحيويتها ، وتتجنب التقوقع ، وتتجدد على الدوام. يُتهم نقد الايديولوجية الثورية بالوقوف الى جانب الرجعية او المحافظة، وهذا صحيح ، موضوعياً ، في بعض الحالات . ولكن ، اذا تراجع المفكر أمام هذا الاتهام ، واذا حدّ من حركة فكره بمخاوف من هذا النوع ، يشجع استفحال مرض اكثر خطراً من هذه المساعدة البسيطة المحتملة للعدو . فان اعدى اعداء الايديولوجية الثورية كامنٌ فيها ، وهو طبعاً التقوقع الذي يمنع التجدد،والذي يحوّلها الى ايديولوجية محافظة ورجعية . ان الحقيقة،**وغرامشي** على حق في قوله ، ثورية دائماً على المدى البعيد . لكن الثورة ليست الحقيقة دائماً .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يشترط اذن ان يكون الفكر صادقاً ،اي خارجاً ، قدر الامكان،عن سلطة الايديولوجية ، حتى تستفيد منه الايديولوجية نفسها ، في اعمال ايجابية وواقعية .

(نقل المقال من الفرنسية الى العربية فاروق مردم)

نديم البيطار

نحو علمنة انقلابية

كان المفكرون الاجتماعيون يدرسون ، حتى القرن الثامن عشر ، الوقائع والظواهر الاجتماعية من زاوية فلسفية واخلاقية ، فلا يتطلعون الى الكشف عمّا هو كائن ، وعما هي عليه الحياة الاجتماعية ، بل يحاولون وصف ما يجب ان يكون على ضوء مفاهيم ميتافيزيقية ومعتقدات دينية في طبيعة الانسان ، ويتساءلون عن القصد من حياته ومن التاريخ . كان نهج تحليل الوقائع الاجتماعية في هذا الدور التاريخي البدائي للفكر الاجتماعي ، نهجاً استنتاجياً .

كانت بعض المبادىء والفرضيات تُطرح كموضوع ايمان ومنها تُشتق بعض النتائج بتسلسل منطقي . لذلك كانت هذه النتائج اخلاقية ، اي انها كانت تحاول تحديد القواعد التي تسمح بقيام المجتمع الفاضل الذي ينسجم مع المبادىء المتافيزيقية والاخلاقية التي تشكل أساساً له ، بدلاً من الاعتماد على مفاهيم موضوعية تُعبر عما هي عليه الاشياء والأحداث أو عما هم عليه الناس . كان هذا النهج نهجاً تقييمياً مجرداً يواجه الأشياء والأحداث والناس بتحديدات قَبْلية للشر والخير ، للعدالة والظلم .

أما الفكرة القائلة بان من الممكن دراسة الانسان والمجتمع كما تدرس الأشياء ، بشكل موضوعي علمي ، فكانت نوعاً من الهرطقة . هذه الفكرة كانت القاعدة التي قام عليها علم الاجتماع . فولادة هذا العلم نفسها ترتبط بالمفهوم الأساسي الذي يقول بضرورة تطبيق وسائل الدرس والملاحظة التي تمارسها العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الاجتماعية . ان **كونت** ، أكد بشدة على

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخاصية العلمية التي تميز السوسيولوجيا الحديثة ، وهو ان أراد في بداية الأمر تسمية هذا العلم « بالفيزياء الاجتماعية » ، فلأنه أراد ان يدل بالتسمية ذاتها على ان القضية هي قضية استخدام النهج نفسه والأدوات التي يستخدمها علم الفيزياء أو العلوم الطبيعية . وعبّر **ماركس ودركهايم** ، فيما بعد ، عن الفكرة نفسها ، فأراد الأول ان يحقق على الصعيد الاجتماعي ما حققه **داروين** على الصعيد البيولوجي ، واراد الثاني معالجة الظواهر الاجتماعية كما لو أنها أشياء .

الفكر العربي وطور البدائية

هذا التعريف العام للسوسيولوجيا الذي بدأ **بكونت** ، ما يزال حتى الآن التعريف الأساسي الذي يحددها . فالعلوم الاجتماعية تشكل علوماً بالمقدار الذي تحاول فيه ، كالعلوم الطبيعية ، ان تصف ظواهر الواقع وتفسره بالاعتماد على نهج الملاحظة والتجربة ، وبالتعبير عن مفاهيم موضوعية لا عن مفاهيم اخلاقية ، هذا على الرغم من ان فكرة العلم قد تطورت في هذا القبيل .

الفكر العربي الثوري ما يزال يتخبط في الطور الاخلاقي الميتافيزيقي البدائي ولم يدخل بعد الطور العلمي . لذلك ان اراد ان يحقق دوره وجب عليه ان يدرس الواقع الموضوعي في موضوعيته المستقلة ، وفيما تتكشف عنه من اتجاهات وقوانين فيعترف بها ويدل عليها ، وان كانت تنفي ميوله ونوازعه الانسانية والاخلاقية . الملاحظات القليلة التي أُبديها في هذا البحث حول ما أسميته **بالعلمنة الانقلابية** تطرح ذاتها في هذا الاطار . ان ما يشكل اذن الصعيد الذي يمتد اليه تفكيري كمفكر اجتماعي ليس موقفاً أخلاقياً امام الدين ، وانما واقع الدين الموضوعي ، كما هو ، كما يتراءى لي على ضوء قناعتي العلمية ، دون ان أترك للأهواء أن تؤثر في رؤية هذا الواقع . فالقصد هو هذا الواقع لا أحكام الدين ومبادئه المجردة ، أي كما وردت في « **الكتب المقدسة** » — فهذا يشكل قضية ميتافيزيقية او اخلاقية لا يهمني الدخول فيها — وذلك لسببين : **الأول** ، لانني أؤمن تبعاً لقناعتي العلمية أن التراكيب الميتافيزيقية والاخلاقية تعكس مهما كانت مجردة، اوضاعاً تاريخية اجتماعية معينة ، وانها تتحول وتزول بتحول الاوضاع التي ظهرت فيها ، وزوالها . والثاني ، هو ان المهم في الدين ليست احكامه ومبادئه كما ترد في الكتب المقدسة ، بل العلاقة التي تربط المؤمنين به ،

وطريقة معاناتهم اياه. فهذه العلاقة هي التي تؤثر في التاريخ سلباً او ايجاباً، وهي التي تحدد مكان الدين من التاريخ، وهي التي تعطي الدين، في تحولها مع التاريخ، حياة وفاعلية معينة، او تؤدي الى انكماشه وعجزه ومن ثمّ الى زواله وموته.

ان نحن نظرنا من هذه الزاوية الى مجتمع ديني، كالمجتمع العربي التقليدي، رأينا انه مجتمع إلهي، أي انه مجتمع متكامل، وبالتالي نهائي لا يمكن اجراء التحويل أو التغيير فيه. فقواعده تشكل دستوراً لا يفرق بين الأمور الدنيوية والأمور الميتافيزيقية، بين القانون والاخلاق. فكلمة الله ليست محدودة، بل تمتد الى كل شيء، وبالسلطة والقوة نفسيهما، الى قضايا العبادة، والاقتصاد، والسياسة، والعلاقات الشخصية. المؤمن يأمل، عبر سلوك يعمل بوحي هذه التعاليم وينضبط بها وفيها، أن يقيم مجتمعاً كاملاً على هذه الأرض. هكذا لا يعني الدين طريقة دينية تحدد علاقة المؤمن بقوى ما ورائية وغيبية وحسب وانما يعني كذلك طريقة معينة في الحياة. ان قصد الحاكم النهائي الأخير، هو ان ينفذ احكام الشريعة التي اوصى الله بها. اما المثقفون فقصدهم ان يكرّسوا جهدهم لإدراك الشريعة وتثقيف الحاكمين والمحكومين بها. الدين يعني ان كلمة الله النهائية قد أُعلنت للناس، ولهذا يستحيل عليه ان ينفتح للباحثين المستقلين الذين يحاولون الاهتداء الى الواقع أو الحقيقة بشكل مستقل. فهو يعني ان هناك نظاماً جامعاً شاملاً يسود التاريخ والاجتماع والحياة والكون، كشف عنه الله للمؤمن، وهو نظام نهائي لا يدخل اليه التعديل أو التبديل أو التحريف. وطالما ان المؤمن يؤمن بذلك يكون عاجزاً عن دراسة العالم كما هو، بشكل مستقل وعلمي وموضوعي، كي يؤثر في عالمه، العالم الذي يحيا فيه. لهذا كانت معركة الانسان الأوروبي الانقلابي الاولى، عند اعلان معركة تحرره، موجهة ضد الدين، وكان عليه ان يدعم كل خطوة يخطوها في هذا السبيل بانتصارات يسجلها ضده. كانت هذه المعركة نقطة الانطلاق في معارك جميع الانقلابات الكبرى في العصر الحديث. فلكي يظهر العمل الانقلابي الكبير يجب ان يكون الوعي قد تحرر من الماضي وتحول الى تصوّرات ايديولوجية جديدة ينظر فيها على نطاق واسع الى قضايا الوجود الكبرى.

علمنة الذات العربية

ان جميع التحولات الحديثة التي اخذت تغير معالم المجتمع العربي، وجميع

اشكال التحديث Modernization التي راح هذا المجتمع يقتبسها ، تنطلق من موقف حديث أمام الكون والتاريخ ، يرى أن الكون مستقل في ذاته تفسره القوى والقوانين التي يتشكل منها وتسوده ، فلا يحتاج الى اية قوة خارجية يستعين بها في تفسير ما يحدث له او فيه . كذلك التاريخ ، فان احداثه وتحولاته تفسر ذاتها بذاتها ، وبما تنطوي عليه من اتجاهات وقوانين . فهو حقيقة نهائية لا تحتاج الى الخروج من ذاتها والاعتماد على اية حقيقة غيبية في تفسير ذاتها . هذا الموقف الذي يقوم عليه المجتمع الحضاري الحديث يعترف ان الواقع الحقيقي واقع حسي ، وان المعرفة فيه تجريبية ، تُشتَق من الحواس وتتميز بقاعدة مادية . هذا الموقف يعبر عن ذاته في جميع مستويات نشاط هذا المجتمع واوجهه ، في العلوم والفنون ، والفلسفة ، والاخلاق ، والقانون ، وفي طرق التفكير والشعور ، وفي التنظيم الاجتماعي ، والاقتصادي ، والسياسي . هذا المبدأ الحسي ، الزماني الدنيوي ، العلماني ، هو الذي يسود العقل الحديث .

ان حركة التحديث العربية تقتبس من الحضارة الغربية جميع العناصر والتحولات التي تعبر عن ذلك الموقف وتنطلق منه كقاعدة أو اطار عام لها . لذلك يستحيل الاستمرار في هذا الاقتباس الذي يزداد بسرعة كمّاً ونوعاً ، دون اقتباس قواعده واطاراته الفكرية والعقلية والنفسية . هذا يعني تمزقاً للذات العربية لا يمكنها ان تعانيه طويلاً . لكن ، بما انه لا يمكنها الرجوع عن تلك الاقتباسات لأن مصيرها ذاته يتوقف عليها ، وبما ان هذه الاقتباسات تفرض فرضاً حتمياً في المدى البعيد ذلك الموقف الجديد أمام الكون والتاريخ ، كانت هذه الذات مضطرة الى نقض اطاراتها وقواعدها الغيبية واستبدالها باطارات وقواعد ترجع الى التاريخ ، وحده ، كحقيقة نهائية في اشتقاقه وتفسير عملها في التاريخ . ان التحولات التي تجتاح مجتمعنا تتناول جميع ظواهره واصعدته ، وذلك يعني تحويلاً يفرض تغيير القواعد الايديولوجية التي يقوم عليها هذا المجتمع . وهذا يعني فلسفة حياة أو ايديولوجية جديدة تنبع من التحولات التي تحدث على ضوء ذلك الموقف أمام التاريخ والكون . ثم ان هذه التحولات تحتاج ، كي تتوفر لها الطاقة والحيوية وقوى الضبط والنشاط والتنظيم التي يجب اعتمادها ، الى فلسفة حياة من هذا النوع ، لأن الذات العربية لا يمكن ان تسترجع وحدتها الممزقة دون فلسفة كهذه .

ان العلمنة التي ادعو اليها ليست اذن اقتباس العلوم الطبيعية والاجتماعية ، الآلة والتكنولوجيا والتصنيع او فصل الدولة عن الدين وحسب ، بل هي ، الى ذلك ، تحرير الذات العربية من اطاراتها الغيبية وتجديد ابعادها العقلية والنفسية في تصور ايديولوجي انقلابي ينسف الايديولوجية الغيبية التقليدية ، ويرجع الى التاريخ كحقيقة نهائية ، قائمة بذاتها . القول بالعلمنة الأولى وحدها يعني اعترافاً ضمنياً لا واعياً ، على الاقل ، بان القضايا والتحولات الخارجية مستقلة عن القضايا والتحولات الذاتية ، يمكنها ان تتحقق دون ان تنعكس في هذا الصعيد الذاتي . ذلك خطأ فادح ، فالقضايا والتحولات الخارجية تحدد ابعاد المجتمع الذاتية ، وفي الوقت نفسه تعكس هذه الابعاد .

الاقتباسات الحضارية وعناصر التحديث التي اخذت تحول المجتمع العربي لا تنمو من هذا المجتمع التقليدي ، ولا تنسجم او تتكيف معه . كل ما فيها غريب عنه ، لكن الافكار والمواقف العقائدية العربية التي ترافقها ما تزال ، على الرغم من ذلك ، تنطلق وتنمو من ذلك الوجود . هذا التمزق يستحيل استمراره . الفكر الانقلابي الصحيح ، وهو شيء لم يتوفر بعد للحركة العربية الثورية ، أبعد ما يكون عن ذلك ، لانه ينطلق وينمو من مواقف وافكار تنقض قواعد الوجود التقليدي العقائدية . لهذا كان الفكر العربي « الثوري » السائد فكراً اصلاحياً لا فكراً انقلابياً . الأول يحاول التوفيق بين استمرار الايديولوجية التقليدية وتغييرات تجري ضمنها ، بينما يرفض الثاني هذه الايديولوجية وينقضها . الأول يعبر عن تغيير تكتيكي او استراتيجي في طريقة التعبير عنها فيترك قواعدها سليمة ، اما الثاني فيعني تغيير هذه القواعد ذاتها ، وطرق التفكير والشعور ذاتها .

هذا الاتجاه نحو تحرير الذات العربية من اطاراتها الفكرية والعقلية والعقائدية والنفسية التقليدية ودفعها نحو تصورات ايديولوجية انقلابية تتجدد فيها هذه الاطارات ، هو اتجاه تفرضه قوى التاريخ الحديث ، ولا يمكن ايقافه. انني من ناحية ميتافيزيقية او اخلاقية محضة قد لا اكون راضياً عنه ، لكن ليس لهذا الأمر اية قيمة ، لأن علمنة الذات العربية في هذا الشكل أمر محتوم بطبيعة التاريخ الحديث . لهذا كان واجب المفكر الثوري ان يعمل مع هذا الاتجاه ، يغذيه ويدعمه ، لأن دور هذا المفكر هو أولاً وقبل كل شيء الكشف عن الاتجاهات الجديدة التي ينطوي عليها التاريخ وتعيينها والدعوة اليها ، وبذلك يختصر الطريق أمامها .

الثقافة ليست اجزاء تتجمّع تجمعاً كمياً. ليست أكداساًمن الأشياءدون انسجام فيما بينها . الثقافة وحدة يتغلغل فيها مبدأ ايديولوجي أو فلسفة حياة تشكل قاعدة ومحوراً لها . لذلك كانت اجزاء الثقافة الأساسية مرتبطة ارتباطاً سببياً، فان تغيّر فيها جزء مهم ، تبعته الأجزاء الأخرى في التحول .

الخروج من الاطار الديني

كل مظهر من مظاهر الوجــود العربي التقليدي مريض . كل عنصر من عناصره ، كل نظام من نظمه ، كل قيمة من قيمه ، يعاني حشرجـة الموت . انه جسداً ونفساً وروحاً وفكراً في بلاء، وليس فيه جزء واحد سليم مُعافى . فنحن نقف في نقطة تحول بين عالمين ، عالم ذلك الوجود ، وعالم جديـد سيقوم على انقاضه . ليس هناك من علاج يمكن ان يجنّب الوجودي التقليدي هــذا المصير . ليس هناك من دواء لهذا الداء الذي يدفع هــذا الوجود الى الموت . ويعود مرض الوجود التقليدي الى تفتت المبدأ الغيبي الـذي يفسره ، الى مرض فلسفة الحياة الدينية التي كان يجد فيها وحدته وذاته والتي اصبحت عاجزة عن ان توفر له الفعالية او الذات الموحدة لأن التحولات الحضارية الحديثة جعلتهـا تتقوقع وتخرج من التاريخ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلسفة الحياة التي تتميز بفعالية في سيادة التاريخ تدل على هذه الفعاليــة بولاء المثقفين والمفكرين لها أو بالقدرة على فرض ذلك الولاء عليهم . استطـاع الدين في التاريخ العربي ان يحقق ذلك حتى القرن العشرين حيث نجد ان المثقفين العرب ابتدأوا يعطون ولاءهم لمواقف عقائدية وفكرية اخرى . لا شـك في ان هؤلاء لم يبدعوا حتى الآن أي موقف ايديولوجي يعلن استقلاله بشكل صريـح عن الدين ويدعو العقل العربي صراحة ومباشرة الى التحرر منـه ، أو يعلن ان الدين يميز دورة تاريخية حضارية زالت فاصبح من الضروري تجاوزها ، ولكنهم اصبحوا بشكل واع او لا واع غير مبالين بالدين ، يعملون في دنيا مستقلة عنه . خروج المثقفين من اطار الدين يعني نهاية الدين ، كما يعني نهاية كل فلسفة حيـاة سادت او تسود مرحلة معينة من التاريخ. ان خروج المثقفين العرب– وخصوصاً الجيل الجديد – من اطارات الدين كلها ، اصبـح الطابـع الذي يميزهم في هـذا الشأن في هذا النصف الثاني من القرن الحالي . لهذا كان على الفكر الثوري ان يتقدم ويوجه هذا الخروج او على الأقل ان يجاريه .

خلال تلك القرون العديدة التي ساد فيها التقليد الديني كان المثقف العربي الذي يقبل الحياة كما هي ، ويرضى بتوجيهات الدين كما يفرضها النظام القائم يجد فرصة كبيرة في خدمة هذا النظام كأحد البيروقراطيين ، القادة السياسيين او العلماء . فالاطار النفسي العام لتلك القرون كان يمنع بروز المفكر المستقل . المفكرون الذين عبروا عن افكارهم وتفسيراتهم الجديدة عن طريق التورية المقصودة حافظوا على بقائهم ، غير ان تجاهل هذا الانتاج واهماله كان ثمناً لذلك. أما الذين تكلموا بشيء من الصراحة ، فقد اصيبوا غالباً بالأذى المادي ، وبعضهم ، كالسهروردي والحلاج ، دفعوا حياتهم ثمناً .

لا شك أن العلماء والسلاطين كانوا على حق في ايمانهم بأن الاعتراف بحرية العقل يهدد جميع مراكزهم ومصالحهم ونظمهم ، أو النظام القائم ككل . ظهور عدد وفير من المثقفين الذين اعلنوا حريتهم او مارسوا هذه الحرية في الفكر والسياسة والاجتماع ، هو الذي كان ، في الواقع ، الخطوة التي فتحت ابواب العصر الحديث وابتدأت بتدمير الوجود التقليدي . ان العلماء يستطيعون مثلاً ان يجردوا علي عبد الرازق من الشهادة التي تجعله واحداً منهم لانه كتب كتاباً عام ١٩٢٥ يطلب فيه انفصال الدولة عن الدين ، أو أن يطلبوا سحب بحث ألقاه أحد المندوبين في مؤتمر لاهور عام ١٩٥٧ ، قال فيه ان بعض اجزاء القرآن كانت تعبر عن اوضاع ظهر فيها القرآن ، وان وجودها اصبح دون مسوّغ وهي تدل ، من ناحية دينية ، على قبول تطوير الأحكام والفكر . او هم يستطيعون ان يفرضوا على الدولة في مصر — وهي دولة «ثورية» — ان تصادر كتاباً قدم نظرية اجتماعية في اصل الدين وتحاكم صاحبه .. الخ . غير ان كل دولة اسلامية وضعت دستوراً جديداً في هذا القرن ، او شريعة مدنية ، ادارية ، او تجارية ، كانت تعتمد على مثقفين ذوي ثقافة غربية ، وليس على العلماء .

ان الباكستان ، وهي الدولة الوحيدة في العصر الحديث التي قامت ، قصداً وتصميماً ، على ضوء تخطيط ديني اسلامي ، لا تاريخي أو قومي ، تحولت عن علمائها عندما رجعت الى هؤلاء تستشيرهم في قضايا الاجتماع والدولة . كانت اجوبة هؤلاء مضطربة ، غامضة ، منقسمة الى درجة جعلت الدولة تتجاوزهم ، فأخذ نفوذهم بالهبوط منذ ذلك الوقت .

في القرنين الأولين من ظهور الدين تميز العلماء بالشجاعة والخلق في محاولتهم تجنب

حدوث «طلاق» بين احكام الدين والأخلاق والسياسة، وذلك بتوسيع الدستور النهائي الإلهي الكامل وتغييره – واستطاع العلماء باعتمادهم على اقوال الرسول والصحابة واعمالهم، ومن ثم على اختراع هذه الاعمال والاقوال، والرجوع الى العرف السائد في البلاد التي امتد اليها الفتح، ان يزيدوا كثيراً من غنى الشريعة. لكن أثر الدستور الإلهي كان كبيراً الى درجة ان المدارس الأربعة في التشريع التي برزت في القرنين الأولين لم تكن تختلف في الواقع الا قليلاً، روحاً وتفصيلاً. غير ان هذه القدرة على الخلق انتهت في القرن العاشر، حيث اغلق العلماء «باب التفسير الفردي» للشريعة. ولا تستطيع الدولة ان تعمل بوحي موقف من هذا النوع. لذلك استمرت في الواقع ومنذ ذلك التاريخ في خلق القوانين الادارية والجزائية والمدنية والتجارية خارج احكام الشريعة او بالاستقلال عنها. منذ ذلك التاريخ اصبح العلماء لاهوتيي الدولة يسوّغون الواقع ويعبرون عنه. ويعبر الغزالي عن ذلك بقوله ان التنازلات التي نقوم بها ليست عفوية ولكن الضرورة تسوّغ الممنوع، اذ عند الاختيار بين الفوضى ووقوف الحياة الاجتماعية وجمودها، لفقدان سلطة شرعية، والاعتراف بأي نظام قائم مهما كان شكله، فان الشارع لا يستطيع ان يختار سوى الموقف الثاني. هذا الموقف كان يدل في الواقع على نهاية الدور الديناميكي للمذهب.

ثم ان الغزالي نفسه كتب في بداية القرن الثاني عشر، بانه ليس هناك أي أمل بالرجوع الى ايمان تقليدي بعد أن يكون الايمان قد أهمل، لان الشرط الضروري للمؤمن بايمان تقليدي هو انه يجب ان لا يعرف بانه تقليدي. فعندما يعلم ذلك يتحطم زجاج ايمانه التقليدي. وهذا التحطم لا يمكن اصلاحه. الايمان الديني أصبح تقليداً. واقعه كتقليد امر معترف به. هذا يعني انه زجاج تحطم. والزجاج المحطم لا يمكن ارجاعه الى ما كان عليه.

المجتمع العربي وثقافة العالم الحديث

ان اصلاح الاسلام وتحرير الذات العربية منه يستلزمان خطوات أكثر شمولاً من اصلاح المسيحية وتحرير العقل منها في الغرب، لأنها في الاسلام غير محصورين في الصعيد الديني المحض. ففي الاسلام تتصل جميع النظم والأعمال والأفكار بالمقدس وهي تأخذ معناها الصحيح من ارتباطها بالله. فتحرير الذات العربية منه لا يعني تغيير علاقة الانسان بالله وحسب وانما يعني كذلك تغيير علاقته

بالحقيقة ، بالدولة ، بزوجته ، باولاده ، بجيرانه . الخ ..

لهذا كان تحرير الذات العربية يعني تغيير طريقة معينة في الحياة وانهاءها . لكن ما ان يدخل التغيير من ناحية أخرى ، الى أي تركيب من العلاقات الانسانية والاجتماعية حتى يخسر كل جزء منها معناه وفاعليته الاصليين ، فينهار التركيب كله بانهيار بعض الاجزاء .

يتميز الإسلام بتقليد بارز من المرونة التاريخية أمام عالم متحرك ، متحول ترجع بمقدار كبير الى عقلانية تاريخية اجتماعية تميّزه وتقدمه على جميع الأديان الأخرى . لكن تحرك العالم الحديث وتحوله يختلفان بشكل اساسي وجذري عن تحركه وتحوله في الماضي .

وتمثّل الاسلام بنجاح في الماضي مفاهيم ومدركات ثقافات اخرى دون أن يغيّر أساسياً من ذاته . لكن كان من السهل ان يحدث هذا التمثل آنذاك ، لان المجتمعات التي تمثّل منها ما تمثّله كانت تتميز بأشكال من التراكيب الاجتماعية مشابهة لتركيبه ، كما أنها كانت هي الأخرى تعتمد اطارات غيبية في تحديد موقعها في الكون والتاريخ . وفي القرن التاسع ، عندما أخذ يتمثّل عناصر الثقافة الاغريقية ، كان يأخذ من هذه العناصر ما ينسجم معه ويهمل ما لا ينسجم . كان الاسلام آنذاك حراً في أن يأخذ ما يريده ، وان يتجاهل ما لا يريده ، لانه كان في دور ديناميكي في معاناته للتاريخ ، كما انه كان في اوج قوته ومنعته السياسية . فلم يكن مضطراً او محتاجاً الى ان يتأثر بما لا يريده من اتجاهات فكرية وحضارية او ان ينفتح عليها .

أما في العصر الحديث فقد تغير الوضع تماماً . فالمجتمع العربي كان منذ قرون طويلة فريسة غزو أجنبي ، خاضعاً ومعرضاً لثقافة تختلف ، كماً ونوعاً، وبشكل جذري جامع ، عن ثقافته التقليدية وعن جميع ما تقدمها من ثقافات وحضارات . فهي ثقافة تتميز برفض تام لأية قواعد غيبية . انها تعتمد قوانين العالم الطبيعي والتاريخي الاجتماعي دليلاً لها ، وتتسنى لها ادوات تثقيف بعناصرها ومفاهيمها لم تعرفها في الماضي اية ثقافة . ثم ان المجتمع العربي وجد نفسه في وضع يقتبس فيه هذه العناصر والمفاهيم ، بشكل تلقائي" مدفوعاً الى ذلك بضرورة بقائه. فهو مجتمع لا مناص له من اقتباس هذه العناصر والمفاهيم، مضطراً الى ذلك بشكل حتمي لان ذلك يعني الحفاظ على بقائه. فتحوله لم يشتق، كما كان الحال في أوروبا، عن طريق ظهور طبقات ونمو اشكال جديدة من الانتاج.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكن هذه العناصر والمفاهيم تنقض نقضاً جامعاً وجذرياً، بحكم طبيعتها ومنطقها، جميع عناصر التقليد الديني ومفاهيمه . لهذا كان تحرك المجتمع العربي نحو التحرر السياسي يعني ، بطريقة ديالكتيكية مستقلة ، تحرره من ثقافته التقليدية كوحدة ، وفي طليعتها التقليد الديني . وهكذا نرى ان تحرر هذه الذات من الدين يحدث عن طريق تحولات المجتمع العربي التي تخرجها تلقائياً من الاطارات الدينية ، فلا ترافقه او تقدم له او تغذيه مشاحنات لاهوتية كما حدث في قضية التحرر من المسيحية .

ابن خلدون وحركة التاريخ

رأى ابن خلدون ان الدولة العربية الاسلامية كانت تمر في دورات مختلفة ، تتميز كل دورة باطوار ثلاثة متماثلة . في الطور الاول ، طور العصبية القبلية التي تشكل قاعدة الدولة ، يتأكد امتداد قبيلة معينة وسيادتها بما تحققه هذه القبيلة من وحدة تكفل لها الانتصار والمنعة . الطور الثاني ، هو طور انتهاء الامتداد فلا يستطيع فيه الابن الذي يخلف الاب المؤسس أن ينال الاحترام والولاء اللذين احاطا بالاب للانتصارات العسكرية التي سجلها . لذلك يدل على سلطته عن طريق خلفاء يؤمن ولاءهم في مختلف اجزاء الامبراطورية . وبما ان قبيلته تصبح غير قابلة للحرب في هذا الطور ، وبما ان بقاءها قريبة منه اكثر من اية قبيلة اخرى يثير المنافسة والعداء ، فان الخليفة كان يضطر الى استخدام الجنود المأجورين . أما الطور الثالث ، حيث يحكم حفيد المؤسس ، فلا يتميز بالهيبة التي يضفيها الفتح او التعمير . يصبح اداة طيعة في يد الجنود المأجورين ، أو يقع ضحية فتح جديد تقوم به قبيلة اخرى تتميز بعصبية اقوى ، وفي كلتا الحالتين ، تنتهي الدورة السياسية التي كانت قبيلته قاعدة لها .

ان فلسفة الحياة التي تشتق منها دورة حضارية بكاملها تشابه هذه الدورة السياسية التي تكلم عنها ابن خلدون . ففي الطور الأول تحاول تلك الفلسفة — غيبية كانت ام زمانية — ان تغزو ، عن طريق طليعة تمثلها ، التاريخ فتشكله على صورتها . في الطور الثاني ، ينتهي الامتداد الديناميكي عبر التاريخ فتحاول ان تبلور في صورتها المجتمع الجديد الذي حققت سيادتها فيه ، فتعمل على ضبط جميع مظاهره في كيانها . أما الطور الثالث ، فهو الطور الذي تنتهي فيه وحدتها ، فتخسر قدرتها على تحديد المشاعر والافكار . وتتبعثر

وحدة المجتمع بتبعثر وحدتها . فيصبح الانتهازيون والوصوليون السادة الذين يعبرون عنها ويتولون امرها . وبدلاً من الابطال والشهداء والمبدعين الذين رافقوها وكانوا صوتها في الطورين السابقين ، يصبح صوتها أشخاص مشوهو الانسانية ، ضعاف عاجزون ، يتاجرون بها ويجترون مبادئها كشعارات . ذلك يعني نهاية تلك الفلسفة وعجزها عن الاستمرار لانها تعجز آنذاك عن خلق التاريخ . انها قد تستمر في هذا الوضع قروناً عديدة دون ان ينكشف أمرها ، الى ان يتحول التاريخ والاجتماع من داخلها او من خارجها ، فتظهر آنذاك تلك التحولات واقعها العاجز ، ويتضح انها اصبحت منكمشة متقوقعة ، وأن العلاقة النفسية والاخلاقية التي تربط بين المؤمنين وبينها علاقة ثبوتية متحجرة لا تستطيع ان تجاري التاريخ ، لذلك تحاول ان تجمد التاريخ وان تسكته . لكن التاريخ لا يجمد ولا يسكت . لذلك ينهي سلطة كل فلسفة حياة – غيبية كانت او زمانية – ووجودها عندما تعجز هذه الفلسفة عن مجاراته . وكل فلسفة من هذا النوع تعجز عن مجاراته في أخذ ادوارها لانها تستنزف قواها في انجازاتها ذاتها . ذلك يعني بداية دورة حضارية جديدة تنبثق من فلسفة حياة جديدة تنسجم مع منطق التاريخ وتحولاته .

ان حركة التاريخ سلسلة من أشكال اجتماعية وعقائدية تستنزف حيويتها فتقع جانباً ،وتموت أمام تراكيب واشكال جديدة تفرضها تحولات جديدة . ينتقل القبول اللاواعي للحياة والمجتمع ضمن تركيب ايديولوجي معين الى صعيد واع يقظ ، فيتحول سلوك الانسان من قاعدة باطنية ذاتية الى علاقات وقوانين ونظم ينظر اليها كأشياء خارجة عنه ، أي ان قواعد وجوده العقائدية تصبح خارجية ، وعندئذ تنحل وحدة المجتمع العضوية ، مما يؤدي الى الموقف الاصلاحي او الثوري ، كي يجد المجتمع وحدة اخرى تنسجم مع القوى الجديدة العاملة في التاريخ .

ان كل حركة ثورية متكاملة – والمرحلة الانتقالية الجامعة التي نمر فيها تفرض هذا النوع من الحركة – تحتاج الى فلسفة حياة او ايديولوجية انقلابية تعتمدها في نقض الوجود التقليدي ، في تحديد موقعها من التاريخ وبناء المجتمع الجديد . هذه الايديولوجية لا تعكس موقفاً ارادياً محضاً ، بل هي نتيجة لجدلية مراحل انتقالية معينة ، هي المراحل التي يعاني فيها وجود اجتماعي معين ازمة تحولية عميقة جامعة تصيب جميع نظمه واصعدته بالتفسخ والانهيار.

المرحلة الانتقالية التي نمر بها حالياً هي من هذا النوع ، وهي تفرض بالتالي ، وبحكم من طبيعتها المستقلة ، بروز موقف ايديولوجي انقلابي جامع . هذه المرحلة الانتقالية التي نمر بها تولد فراغاً عقائدياً يزداد اتساعاً وعمقاً باستمرارها، وبازدياد التحولات الحضارية التي تحققها وتنجزها . والحركة العربية الثورية مضطرة ان تملأ هذا الفراغ بفلسفة حياة جديدة تضبط هذه التحولات وتحل محل الايديولوجية التقليدية وتفسر بدلاً منها علاقة العربي بالحياة والتاريخ . فهي ان ارادت ان تؤكد ذاتها بشكل نهائي وجب عليها ان توفق الى هذه الايديولوجية . والا فانها تخسر فاعليتها وتنكمش ، فتتابع سيرها في بلبلة وفي نشاط متقطع .

نهاية الايديولوجية الغيبيّة

الايديولوجية العربية الغيبية التقليدية استنزفت قواها في امتدادها التاريخي الثقافي ذاته ، وهو امتداد تزول فيه صورة الايديولوجية وقيمتها الاساسية ، فلا يبقى منها سوى النظم التي تستمر كقشور خارجية . يعطينا واقع الايديولوجية الليبرالية الحالي صورة واضحة عن ذلك . فهذه الايديولوجية كانت شأن كل ايديولوجية اخرى عند ولادتها ، تأخذ بلبّ المؤمنين بها وبمجامع قلوبهم . لكن الموقف تحول الآن وانقلب تماماً . فبدلاً من ان يرى فيها اتباعها والمؤمنون بهامفهوماً في الإنسان والحياة، أصبحوا يرون فيها مجموعة من الاساليب التكتيكية وحسب، ويعلنون أن اي تحديد آخر لها ينتهي الى الغموض وحتى الى السخافة . هكذا فقدت هذه الايديولوجية المضمون الذي جعل منها حركة تمتد امتداداً انقلابياً فأصبحت مجموعة من الأدوات في الحكم . اعتبارها مجموعة من هذه الأدوات يعني أنها أصبحت ثابتة جامدة من ناحية عقائدية ، عاجزة عن الامتداد مع التاريخ .

عندما تخسر الايديولوجية الانقلابية انقلابيتها عن طريق تحققها وامتدادها، أي عن طريق تورّطها في وجود اصبح تقليدياً، يصبح الافراد والاتباع مرتبطين بأجهزتها ، بدلاً من الارتباط بها والتجاوب معها في موقف عقائدي . يعلق الحزب الشيوعي الفرنسي مثلاً، بصراحة تامة، بانه «يفتح ابواب عضويته لجميع الذين لا يشاركون في افكاره ومبادئه الفلسفية ، لكن بشرط واحد ، هو أن يحترموا النظام الحزبي ، والا يبشروا بأفكار فلسفية غير الافكار التي ينادي

بها الحزب » . فعضوية الحزب اذن تقوم بالارتباط بالجهاز الحزبي ، وليس بالجهاز العقائدي او الفلسفي . لذلك يمكن القول بأن الماركسية ، في فروعها الشيوعية والديموقراطية الاشتراكية ، اصبحت في الغرب مجموعة من الكليشهات ، وصار اهم عناصرها جزءاً من المعرفة التاريخية الاجتماعية الحديثة ، واصبحت الدراسات التي تبنى في اشكالها المختلفة ، تعيد ذاتها بطريقة رتيبة . اما ذلـــك الايمان البكر ، وتلك الثقة غير المحدودة بالغـــد الجديد ، وذلك الوعي الحاد بولادة انسانية جديدة في المستقبل القريب ، والشعور الغريب الذي يرافق الاكتشاف الكبير الجديد ، وذاك الجو من الصوفية الاخلاقية الذي ساد الحركة عند فجر ظهورها ، وفكرة الرسالة التي تنهي التـــاريخ وتحول المجتمع الانساني تحويلا شاملاً ككلّ ، فقد جفّت كلها واصبحت الشيوعية والديمقراطية الاشتراكيــة تقفان عاريتين في الغرب . هذه النهاية هي التي ترقب جميـــع الايديولوجيات . وقد اصيبت بها ، وبشكل اعمق ، الايديولوجيات الغيبية التي قامت الليبرالية والماركسية على انقاضها .

يبرز الشرط الاول لامتداد الايديولوجية الانقلابية واستمرارها ، في قدرتها على إحداث تغيير دائم . اما طبيعة التغيير فليست بذات اهمية . اذ من الممكن دائماً ايجاد تسويغ ما في الفلسفة الاجتماعية التي تكمن وراءها ، او تكييف تلك الفلسفة وتفسيرها بشكل يؤمن تسويغَ التغيير . كانت الخاصة الاساسيـــة في الثورة البورجوازية منذ قرنين هي التغيير الدائم أي المرونة والايديولوجية التي جعلتها تنفتح للتطورات الحديثة ، او التي أتاحت لهذه التطورات إمكان دخول اطارها الايديولوجي الى حد يجعلها تنسجم معه .

ان قدرة الايديولوجية الانقلابية على الاستمرار والفاعلية لا تكمن في توجيه الناس الى مكان خاص وابقائهم فيه ، بل تكمن في دفعهم دفعاً دائماً الى التغيير ، بمقاصد وآمال ومواقف جديدة تبثها فيهم ، عن طريق تفاسير ديناميكية مختلفة تعبّر فيها عن تركيبها . يعجز من لا يدرك هذه القـــاعدة الثورية عن ادراك التاريخ . كل ايديولوجية تعجز عن الانفتاح لتفاسير ومواقف ديناميكية فتتسع لتطورات جديدة ، تعجز عن الحياة وتموت سريعاً . ولكن قدرة اية ايديولوجية على الانفتاح محدودة . وهناك حدود يستحيل على اية ايديولوجية ان تتجاوزها في تحققها وتكيفها من الخـــارج . كانت مشكلة المجتمع البورجوازي مثلا منـــذ الحرب العالمية الاولى هي عجز الايديولوجية التي ينبثق منها ، عن تفسير ذاتها بشكل

ديناميكي حيّ يتسع للتطورات والتحولات الجديدة ، او بالأحرى خروج التطورات والتحولات عن كل قدرة على الاستيعاب تستطيع تلك الايديولوجية ان تنكشف عنها . بدأ الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الذي نشأت عليه ، اقتصاد **سميث وساي وبانتام** يخسر في الواقع قوة التوجيه والارشاد، والتكيف والضبط في اواسط القرن التاسع عشر . لهذا اصبح المجتمع البورجوازي مجتمعاً جامداً من ناحية ايديولوجية ، وأخذت الأحداث والتحولات التاريخية والاجتماعية تتجاوزه ، وكان من الطبيعي ان تظهر حركات انقلابية أخرى باسم إيديولوجيات جديدة تنقضه وتنقض الايديولوجيات التي تسوغه. الحركات الشيوعية في الغرب اصبحت في بداية هذا الطور ودخلت أبوابه . وفي آسيا اخذت الايديولوجيات التقليدية تنهار كاوراق الخريف ، تتفتت وتتبعثر بسرعة امام التحولات الحضارية الحديثة التي أحاطت بها من كل جانب فعجزت عجزاً تاماً عن تمثلها .

ما هي الثورة ؟

ان كل ثورة كبيرة في العصر الحديث اعتمدت ايديولوجية انقلابية .كل منها وجدت نقطة الانطلاق في فلسفة حياة جديدة تحرر الفرد من الوجود التقليدي، تدعو الى تدميره والى بناء مجتمع جديد . هذا الموقف يحرك ويسود الثورات الاجتماعية الآن في مسرحها الجديد ، في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية . ان الثورة الاجتماعية الجذرية لا تستطيع ابداً ان توجد او ان تستمر في فراغ ايديولوجي . وهذه الظاهرة تشكل قانوناً ثورياً لا يمكن ان يغفل عنه اكثر المفكرين سطحية في دراسة التاريخ . هذا يعني ان الثورة الاجتماعية التي دخلنا ابوابها العريضة لا تستطيع ان تقتصر على توزيع الارض والغاء التركيب الطبقي ومحاربة الفقر والجهل والمرض ،وتغيير النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واقتباس الآلة والتركيز على التصنيع ، فلا بد لها ، كذلك ، بخاصة ، من تجديد افكار المجتمع وقيمه وعقليته ونفسيته ومشاعره،بشكل يغير فيه طرق التفكير والشعور ، كما يغير موقفه الأساسي امام الحياة ويجدد نظرته العامة الى التاريخ والكون. ان الثورة الإجتماعية ليست قضية إحصائية تدور حول زيادة الإنتاج، او توزيع الثروة، او توفير مايجب من الخدمات الاجتماعية فحسب. انها مضطرة بالاضافة الى ذلك الى معالجة الفراغ الايديولوجي الكبير الذي يحيط

بها والذي بوسعه تحققها ذاته ، كما انها تجد ذاتها مدفوعة دفعاً تلقائياً الى تجديد الابعاد العقلية والنفسية وبلورتها في صورة جديدة .

ان الصراع السياسي الاجتماعي يجب ان لا ينسينا ان هناك صعيداً آخر لا يمكن تجنبه ، هو الصعيد العقلي النفسي . ان انتصاره في الصعيد الأول يفرض مجابهة هذا الصعيد الثاني ، وكلما ازداد ظفره بروزاً هناك تزداد هذه المجابهة الحاحاً . ان الوجود العربي التقليدي ينحل ويتفتت باستمرار وهو يزداد تحللاً وتبعثراً أمام التحولات الحضارية التي تجري فيه ، لذلك كان على العمل الثوري ان يتجاوز ذاته فيقود الى تجديد ذاتي ، وهو ان لم يتجاوز ذاته بهذا الشكل ، لا يستطيع ان يلهم الأمة ويقودها الى دورة تاريخية خلاقة جديدة . المجتمع العربي يحتاج الى تصور ايديولوجي انقلابي يحرره من وجوده التقليدي وخصوصاً من الايديولوجية الغيبية التي يعتمدها ، واذا لم يجد هذا التصور والقيادة التي تعبر عنه ، فانه سيخسر قدرته على تحقيق فعّال لمقاصده البعيدة ، وعلى تحقيق خلاصه .

ان تجارب التاريخ الايديولوجية تدل بوضوح على ان التركيب الايديولوجي يستمر طويلاً بعد ان يكون قد خسر حيويته . ولكي يمكن ان نكتشف عن فائدة ايديولوجية معينة وصلاحها وقدرتها على البقاء ، نستطيع ان نعتمد مقاييس عديدة ، من أهمها قدرة هذه الايديولوجية على صنع التاريخ وتوجيهه وقيادته . فهي ان لم تستطع ذلك ،واصبحت تحولات التاريخ والاجتماع تحدث خارجها ، وضدها ، فذلك يعني انها شارفت على نهايتها . ان نظرة عابرة على واقع الايديولوجية الدينية الغيبية التي تميز الوجود العربي كافية للتدليل على أن تحولات التاريخ تجاوزتها واخرجتها من مجراه . ثم اننا نستطيع ، كقياس آخر ، ان نحدد الأوضاع الأساسية التي رافقت في الماضي ظهورها والتركيب الاجتماعي الذي برزت فيه ، فان كانت تلك الأوضاع لا تزال موجودة ، كان من الممكن الاستنتاج بان تلك الايديولوجية لا تزال ظاهرة طبيعية . أما ان كانت قد تحولت او اخذت بالتحول بشكل جذري عما كانت عليه سابقاً عند ظهور الايديولوجية فيمكن القول آنذاك ان هذه الأخيرة ليست ظاهرة طبيعية بل اصبحت في الواقع ظاهرة مرضية . أوضاع نشوء الايديولوجية الغيبية التي تسود المجتمع العربي التقليدي هي في طريقها الى التغيّر الشامل ، لهذا كان الالتزام بها في مرحلة التحول الجديدة التزاماً غير طبيعي . ان النظام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاجتماعي السياسي التقليدي ، الذي افلس أمام غزو الحضارة الحديثة يعني في الوقت ذاته افلاس الايديولوجية الغيبية التي تقترن به لأنه كان يجد فيها تسويغه النهائي.

كل ايديولوجية تقليدية تتميز بطبيعة ثابتة متحجرة مغلقة ، بينما التاريخ يتميز بطبيعة متحولة ديناميكية ، تتغير باستمرار ، وتتحرك دون انقطاع عبر مراحل انتقالية غير محدودة . ذلك يشكل نقضاً للايديولوجية ويكشف عجز المجتمع الذي يعتمدها عن مماشاة هذه الطبيعة المتحركة . أمام هذا التناقض بين الايديولوجية التقليدية والتجربة التاريخية ، يجد الفرد ان أسهل الطرق هي التمسك بالأولى لما يوفره ذلك من استقرار يريحه من الجهد الفكري والنفسي ، ومن عبء الحرية في تحديد وجوده من جديد . لكن سيادة الايديولوجية ، أيّة ايديولوجية ، لا تتم عن هذا الطريق ، ولا ترتبط بتعنت الاتباع ، بل تعتمد على نوع العلاقة التي تشدها الى التاريخ ، وعلى قدرة النفسية التي تتبلور فيها في التفاعل معه وسيادته . غير ان كل ايديولوجية تجد بعد مرور مراحل معينة في مجرى تحققها ، انها تجابه تحولات تاريخية وتجارب يومية غريبة عنها فتعجز عن سيادتها . عندئذ يدق ناقوس نهايتها . الفرد يستطيع ان يستمر الى مدة ما ، متمسكاً بايديولوجية تقليدية اصبحت عاجزة عن التجاوب مع التاريخ ، فيواظب على الاعتراف بفرضياتها والاستماع الى تعاليمها لكنه لا يستطيع الاصغاء طويلاً اليها وهو يرى ان التناقض يزداد ويتسع بين ما تعود عليه من مفاهيم وما يواجهه من تجارب جديدة تنقض تلك المفاهيم . الفرد لا يستطيع ان يحيا طويلاً دون اجوبة فعالة عن القضايا الأساسية التي تواجهه والمشاكل الكبرى التي يعانيها . وهو اذ يجد ان هذه الاجوبة تأتيه من مصادر تقليدية ، يفتش عنها في مكان آخر . ولا يلبث ان يتحول الى ايديولوجية جديدة تحرره من الايديولوجية التقليدية .

الموقف الثوري

اقتصرتُ على بعض الملاحظات العامة حول علاقة الدين بالتاريخ دون التعرض لاحكامه ومبادئه وطبيعته . لأنّ الدين ، كما ذكرت ، يجد معناه وقيمته ودوره في هذه العلاقة . فنحن لا نتصل بالدين ابداً بشكل مباشر بل دائماً وابداً عبر التاريخ والاجتماع . لهذا كانت اوضاع الاجتماع والتاريخ هي الصعيد الذي يجب ان نحدّد فيه موقفنا من الدين او موقع الدين من الحياة .

هذا الصعيد يكشف ، عندما ننظر اليه بموضوعية تاريخية تحاول ان تحدد اتجاهاته ووقائعه ، ان لكل دين دوراً ديناميكياً يسود فيه التاريخ ويلازمه عند بدايته ، ودوراً ثبوتياً جامداً متحجراً يخرج فيه عن التاريخ وتحولاته ، وان هذا الخروج يعني نهايته . ثم اننا نجد بان التاريخ الحديث خرج من الأديان الغيبية الماورائية المعروفة وعليها فأصبحت هذه الأديان منكمشة تقف خارجه ، عاجزة عن مجاراته أو احداث اية فاعلية في مجراه . هذا يعني ثالثاً ، ان المفكر الاجتماعي ، وخصوصاً الثوري ، يجب ان يعمل مع مجرى التاريخ ويساعد هذا المجرى في التعبير عن ذاته .

لكن هذا لا يعني أبداً استثناء أيّ موقف ميتافيزيقي او أخلاقي حول الدين ومعناه ، كما انني لا أتجاهل هذا الصعيد لانني أريد تجنبه . لذلك ان تساءل القارىء عن موقفي في هذا الشأن ، فجوابي هو :

١ – انني أؤمن ان ليس هناك من اديان تاريخية تنكرت في تعاليمها للعقل الانساني وكرامة الانسان اكثر من الاديان الوحدانية .

٢ – ان مساوىء الأديان وشرورها تزيد كثيراً جداً عن خيرها .

٣ – ان الأديان الوثنيــة كانت اخف شراً وأكثر عقلانية من الأديان الوحدانية . فهي أقل شراً لانها لم تكن تضطهد وتقتل الآخرين باسم آلهتها كما صنعت الأديان الوحدانية ، اذ كانت تؤمن ان لكل مجتمع آلهته فهو حرّ بها . وكانت اكثر عقلانية لانها ، بتعدد آلهتها ، اعترفت بتعدد مظاهر الكون ومستوياته اكثر من الأديان الوحدانية وهو موقف اكثر انسجاماً مع العلوم الطبيعية الحديثة التي تميل الى رؤية مستويات عديدة ، متباينة ، معقدة ينطوي عليها الكون .

٤ – ان التاريخ شاهد آلاف الأديان التي آمن اصحابها بانها الكلمة النهائية حول التاريخ والكون والحياة ، ولكن جميع هذه الأديان ماتت ، وليس هناك أيّ سبب يجعل الأديان الحالية في العالم أكثر حظاً .

٥ – انني أؤمن بالتاريخ وأؤمن بالانسان ؛ أؤمن بالتاريخ حركة توسع من وعي الانسان وحدود حريته ، وتحرره في المدى البعيد من الأساطير والأوهام . وأؤمن بالانسان كائناً قدره الأكبر هو ان يتجاوز ذاته باستمرار فيزيد من قدرته على سيادة ذاته وواقعه . أؤمن بقدسيته وقدسية حريته من القيود والعبوديات ، وأؤمن ان هذه الحرية ستتحقق له في المستقبل . فان تشاءم متشائم ، فليذكر أن التاريخ الحضاري ابتدأ منذ بضعة آلاف سنة ، وأن باب المستقبل ينفتح على ملايين السنين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عادل ضاهر

هل للدين منطقه الخاص ؟

هناك أسئلة كثيرة ما زال طرحها محرماً في شرقنا العربي . بعض هذه الأسئلة متعلق بالجنس وبعضها متعلق بالمعتقدات الأخلاقية بصورة عامة . ومنها ما هو متعلق ببعض المعتقدات السياسية . سبب ذلك أن مجتمعات الشرق العربي ما زالت تتوهم أن بعض معتقداتها السياسية والأخلاقية وما الى ذلك يجب ان ينظر اليه كأنه يشكل فئة من المسلمات القبلية التي لا مجال لفحصها او الشك فيها ، واخضاعها بالتالي للنقد . لقد بلغ هذا الاتجاه ذروة المذهبية بالنسبة الى المعتقدات الدينية بصورة خاصة. أقصد هنا معتقدات الدين الأساسية كالإيمان بوجود الله الخالق الأحد وبيوم الحشر وخلود الروح وغيرها من المعتقدات التي تشكل أساس الديانات التوحيدية. السؤال الاساسي الذي نود ان نعالجه ، اذن ، هو هذا : هل هذه المعتقدات قابلة للنقد ؟ ام انها غير قابلة حتى ، نظرياً ؟ سؤالنا ، اذن ، فلسفي محض ، ولذلك ستكون معالجتنا له معالجة فلسفية محضة .

لنبدأ ، قبل اي شيء آخر ، بالتمييز بين امرين اساسيين: قابلية معتقد ما للنقد نظرياً ، وقابليته للنقد عملياً . ان نقول ان معتقداً قابل للنقد عملياً يعني أن نقد هذا المعتقد قابل للتحقيق عملياً . هذا يتضمن القول ان لدينا القدرة العملية للحصول على جميع المعلومات والحقائق المطلوبة لاظهار نواقصه او بعض مواضع الخلل فيه ، أو ان المعتقد المعني يعاني ، بمعنى آخر ، نقصاً او خللاً وأن لدينا الوسائل العملية الكافية لاظهار هذا النقص او هذا الخلل . هذا يعني طبعاً ان المعتقدات المتركزة على اسس متينة والتي أثبتها الاختبار غير

قابلة للنقد عملياً . اعتقادنا ، مثلاً ، بأن الحياة لا يمكن ان توجد بغير أوكسجين اعتقاد ثبّته الاختبار العلمي ، فهو لذلك غير قابل للنقد عملياً .كل المعتقدات العلمية غير قابلة للنقد عملياً على أساس ما اوردناه . ذلك ان اي معتقد علمي يصير كذلك بعد ان يظهر لمجموع العلماء ان ليست هناك امكانية لنقده او دحضه عملياً ، اي انه لا يمكن ، عملياً ، قبول نقيضه . هذا يعني بالتالي ان كل معتقد يمكن ان يُنقد او يدحض ، عملياً ، لا يمكن لنقيضه ان ينقد او يدحض عملياً . وكل معتقد يمكن ان يُقبَل عملياً لا يمكن لنقيضه ان يقبل عملياً .

كل معتقد قابل للنقد او الدحض ، نظرياً ، معتقد لا يؤدي نقده أو دحضه الى التناقض ، حتى وان كان غير قابل للنقد او الدحض عملياً . أن نقول ، مثلاً ، ان الاعتقاد بثبات القوانين الطبيعية قابل للنقد او الدحض ، نظرياً ، يعني ان الاعتقاد بنقيضه لا يقود الى التناقض المنطقي . أي ان محاولة نقده أو دحضه لا تشكل تضارباً مع القوانين المنطقية . كل ما هو قابل للنقد عملياً قابل للنقد نظرياً . ولكن العكس ليس صحيحاً . ان نقول ، اذن ، ان معتقداً ما قابل للنقد او الدحض نظرياً ، يعني في الدرجة الأولى اننا قادرون على تصور نقيضه منطقياً . هذا يعني اننا قادرون على تحديد او وصف الشروط التي يمكن بموجبها قبول نقيضه ، دون ان يعني ذلك أن هذه الشروط حاصلة او قابلة للحصول عملياً . كل ما نعنيه هو أن هذه الشروط قابلة للحصول منطقياً . وهذا يعني انه ما من سبب منطقي يمنع حصولها ، مع ان حصولها قد يتضمن تضارباً مع القوانين الطبيعية ، او مع بعض المعتقدات الأخرى التي ثبتت لنا صحتها وثبت لنا صدقها . مثل هذه المعتقدات اذن ، قابلة للبحث والنقد والنقاش وللدحض ، كذلك .

هل هناك معتقدات غير قابلة للنقد حتى نظرياً ؟ وما هي طبيعة هذه المعتقدات ؟ اول ما يتبادر الى اذهاننا حينما نحاول الاجابة عن هذين السؤالين ان معتقدات من هذا النوع الذي لا يمكن ان يدحض حتى نظرياً يجب ان تتّسم بطابع قبْلي . اي ان موضوع ايّ من هذه المعتقدات يجب ان يتضمن علاقة منطقية ضرورية بين مفهومين او اكثر ، او يجب ان يشكل حقيقة يمكن ادراكها بصورة مباشرة دون اللجوء الى الملاحظة التجريبية والاختبار. لا بد، باختصار ،من ان يشكل حقيقة قبلية ضرورية وبالتالي غير تجريبية . هنا يمكن القول ان الحقائق الرياضية والمنطقية تشكل مواضيع ممتازة لمعتقدات من

هذا النوع . اعتقادنا ، مثلاً ، ان مجموع زوايا المثلث يساوي ١٨٠ درجة هو من هذا النوع . ان اعتقاداً من هذا النوع غير قابل للنقض او الدحض حتى نظرياً ، لأن نقيضه يشكل تضارباً مع القوانين المنطقية . ولكن اعتقادنا ، مثلاً ، ان شروط الحياة متوفرة في المريخ ، مهما كان مدعوماً بالأدلة والحجج والبراهين العلمية ، يظل اعتقاداً قابلاً للدحض ، نظرياً ، لأن نقيضه لا يشكل تضارباً مع القوانين المنطقية .

على أساس هذا التمييز بين القابل للدحض نظرياً وغير القابل يمكن أن نميز بين أمرين آخرين مهمين : بين قضية مفتوحة Open Question وقضية مغلقة Closed - Question . القضية المفتوحة ذات علاقة باعتقاد قابل للدحض عملياً او ، على الأقل ، نظرياً . انها ، لذلك ، قضية ذات شؤون قابلة للنقاش ، والشك ، والمداولة ، والنقد . القضية المغلقة ، من ناحية أخرى ، تتعلق باعتقاد غير قابل للدحض حتى نظرياً . وهي ، لذلك ،قضية ذات شؤون غير قابلة للشك ، والمداولة ، والنقد .

السؤال الاساسي امامنا الآن هو هذا : هل تشكل قضية عدم قابلية معتقدات الدين الأساسية للنقض قضية مغلقة ام قضية مفتوحة ؟ بمعنى آخر ، هل هذه المعتقدات قابلة للنقاش ، والمداولة ، والنقد ؟

يبدو لبعض الفلاسفة المعاصرين والمهتمين بشؤون الدين والقضايا الفلسفية المتفرعة عنها ان معظم ناقدي الدين أهمل ناحية اساسية ألا وهي ان الدين يمكن وصفه كما وصف ج. أ. مور G.E. Moore الأخلاق ، أي على انه ، كالأخلاق ، غير قابل للتحويل Sui Generis . يجب ألا نُقاد هنا ، بالنسبة الى هؤلاء الفلاسفة ، الى الاعتقاد بأن الشؤون الدينية هي شؤون تجريبية وحسب لأن قضية الحقيقة الربانية ، مثلا ، يمكن ان تطرح على هذا الشكل : هل الله حقيقي أم لا ؟ امكان طرح القضية على هذا الشكل ، لا يجوز ان يقودنا الى الاعتقاد بأن الخلاف بين المؤمن وغير المؤمن خلاف حول حصول او عدم حصول واقعة تجريبية معينة . يضع د.ز. فيليبس القضية على هذا الشكل : « عندما يعلن احد المناطقة الايجابيين ان الله غير موجود لأنه لا يمكن تعيينه ، لا يعترض المؤمن على اساس ان البحث عن الله لم يستنفد كل طاقاته ، بل على أساس ان البحث يسيء فهم منطق الموضوع المقصود من البحث ، يعني ، حقيقة الله . »[١]

يقترح فيليبس ، الى جانب ذلك ، ان السؤال : « اي نوع من الحقيقة هي الحقيقة الربانية ؟ » لا يجوز ان يقابل مع السؤال : « هل هذا الكائن الفيزيائي موجود أم لا ؟» بل مع السؤال : « أي نوع من الحقيقة هي حقيقة الكائنات الفيزيائية ؟ » « لأن السؤال عن حقيقة الله » ، يقول فيليبس ، « سؤال عن نوع من الحقيقة لا عن حقيقة هذا الكائن او ذاك ...»[٢] هذا يصح ، كذلك ، على السؤال عن حقيقة الكائنات الفيزيائية . ان سؤالاً من هذا النوع هو كذلك سؤال عن نوع من الحقيقة لا عن حقيقة هذا الكائن الفيزيائي او ذاك .

ما هي اذن ، الطريقة السليمة للبحث الفلسفي عن حقيقة الله ؟ لنفترض ان واحداً سأل : «حقيقة مقابل ماذا ؟ » . قد يناقش واحدنا ان امكانية عدم كون الله حقيقياً ، او عدم وجود الله لا يمكن تصورها ضمن أيٍ من الأديان . ولكن مسألة وجود الله او عدم وجوده ، بالنسبة الى **فيليبس** ، قد تكون مدار بحث في المناقشات التي تحصل بين الأديان. يقترح **فيليبس** ان القول بأن واحداً يعبد الإله نفسه الذي يعبده شخص آخر لا يتضمن الاشارة الى موضوع واحد أو امكانية مجابهة موضوع واحد[٣]. هناك خلاف شاسع بين أن نقول إن فلاناً شاهد الشيء ذاته الذي شاهده شخص آخر ، وان فلاناً يعبد الإله نفسه الذي يعبده شخص آخر . هناك في الحالة الأولى اشارة لموضوع واحد وتوقع لمجابهة هذا الموضوع . وليس في الحالة الثانية اشارة لموضوع واحد، ولا توقع لمجابهة اي موضوع . الله ليس موضوعاً . الذي جعل **بولس** مثلاً يدرك أن الإله الذي عبده هو كذلك إله ابراهيم ، على الرغم من كل التغييرات التي طرأت على مفهوم الله ، هو كون **بولس وابراهيم** ينتميان الى التقليد الديني نفسه . ان يقول واحدنا ، بالنسبة الى **فيليبس** ، ان إلهاً ما ليس إلهه يعني ان الذين يؤمنون به ينتمون الى تقليد ديني مختلف جذرياً عن التقليد الديني الذي ينتمي اليه هو نفسه . هذا ينقلنا الى الادعاء المشهور الذي يأخذ به المدافعون عن أفكار **فيليبس**، والقائل بأن مقاييس ماهو ذو معنى وماهو غير ذي معنى بالنسبة الى مفهوم الله ، مقاييس مُتَضَمَّنة في التقليد الديني وليست خارجه . انها مقاييس صادرة عن الدين كفاعلية حياتية وليست مفروضة عليه من الخارج . هذا الا دعاء شديد الأهمية بالنسبة الى ما يمكن ان تقدمه الفلسفة واللاهوت لدراسة الدين . احد الاستنتاجات التي يمكن ان تُستدل من منطلقات **فيليبس** الأساسية هو أن مقياس ما هو معقول وغير معقول ، ذو معنى وغير ذي

معنى بالنسبة الى مفاهيم الدين لا يمكن ان يوجد خارج الدين لأنه مُعطى في نظام الكلام الديني Religions Discourse نفسه . «اللاهوت يمكن ان يبرر قدرته على اعلان ما هو ذو معنى في الدين وحسب اذا كان ذا علاقة داخلية مع اللغة الدينية [٤] » . ويقرر فيليبس أنه ساعة يصير لواحدنا لغة ، يصير له المنطق اللازم لاقرار ما يمكن وما لا يمكن قوله ضمن هذه اللغة . بهذا يكون المنطق المعني نابعاً من اللغة وليس سابقاً عليها. اذن ساعة يصير لواحدنا لغة دينية يصير له اللاهوت اللازم لاقرار ما هو معقول وغير معقول ، ما هو ذو معنى وما هو غير ذي معنى ، ضمن اطار هذه اللغة الدينية دون ان يكون سابقاً عليها[٥].

اللاهوت ، اذن ، لا يمكن ان يفترض مقاييس معينة على الدين من الخارج سواء كانت هذه المقاييس تستهدف وضع حد فاصل بين المعقول وغير المعقول ، بين ما هو ذو معنى وغير ذي معنى ، بين ما هو حقيقي وغير حقيقي ، صادق وغير صادق بالنسبة الى المفاهيم والعبارات الدينية ، او تستهدف أموراً غيرها . ما يصح على اللاهوت يصح كذلك على الفلسفة . وليست مهمة الفلسفة بالنسبة الى الدين تسويغ الدين او نقده بل فهمه . بالحميَّة نفسها التي تحدث بها **فيليبس** عن الدين ، يقول **بيتروينش** :

« ليست مقاييس المنطق هبة مباشرة من الله ، بل انها تصدر عن طرق الحياة وأشكال الاجتماع الانساني ، ولا يمكن ان تفهم الا من خلالها . العلم مثلاً شكل من هذه الأشكال ، والدين شكل آخر ؛ لكل شكل مقاييس خاصة به بالنسبة الى ما هو معقول وغير معقول . لذلك يمكن ان توصف أفعال معينة ضمن العلم او الدين بأنها منطقية او لا منطقية ... من اللامنطقي مثلا في الدين أن نقول ان واحدنا يمكن ان يضع قوته مقابل قوة الله ... ولكن لا يمكننا ان نقول بمعقولية ان الممارسة العلمية او الممارسة الدينية نفسها منطقية او لا منطقية . كلاهما غير منطقي [٦] » .

قول وينش هذا يضعنا وجهاً لوجه مع ما أُحب تسميته «قضية عدم قابلية الدين للتحويل » The Irreductibility Thesis . تعود جذور هذه القضية الى الفيلسوف النمساوي ويتجنشتين Wittgenstein . ما هي هذه القضية ، وما هي مسلماتها الأساسية ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يمكن ان توصف قضية عدم قابلية الدين للتحويل بهذه الطريقة العامـــة : اللغة الدينية ، كأي لغة اخرى ، لها قواعدها الخاصة التي تقرر طبيعتهـــا وتقرر حدودهـــا . كل محاوله تستهدف تحلّل هذه اللغة الى لغة أخرى ، او اخضاعها لقواعد غير قواعدها محاولة تحمل في تلافيفها بذور التناقض الواضح . أن تحوّل شيئاً ما الى غير ما هو يعني بلاجـدال، ان تجرده من ذاتيته الخاصة وبالتالي ان تعدم وجوده الخاص ، وتعطيه وجوداً آخر مختلفاً اختلافاً جذرياً عن وجوده الخاص به . هذا تماماً ما يحصل ، بالنسبة الى **وينش** واتباعـــه ، عندما يحاول واحدنا العمل على تحويل اللغة الدينية الى لغـــة اخرى ، او اخضاعها لقواعد غير قواعدها الخاصة بها . الشيء الأساسي الذي يجب عمله ، اذن ، حتى نكفل عدم تحويل الدين الى غير ما هو وبالتالي تجريده من ذاتيته ، هو ان نؤكد على واقع كون اللغة الدينية خاضعة لفئة معينة من القواعـــد الخاصة بهـــا . الى جانب ذلك يجب ان نشدد على اهمية كون فهم الدين ممكناً وحسب على ضوء هذه القواعد ، اي بمحاولة فهم كيفية تطبيق هذه القواعد في الدين وفهم عملها في ضبط العبارات الدينية وتحديدها . عندما يصبح ذلـــك واضحاً ، لا تعود هناك مشكلة معنى ضمن الدين ، لأن المعنى يحدده الاستعمال، وما دامت العبارات الدينية متوافقة مع القواعد اللغوية الناشئة ضمن الدين فان لها استعمالاً ، **وما دام لها استعمال فانها ذات معنى.** بالنسبة الى وجهـــة النظر هذه ، اذن ، لا يمكن ان تنشـــأ ضمن الدين أية مشكلة بخصوص ما اذا كانت العبارات الدينية المشيرة الى وجود متعال Transcendent ذات مدلول واقعي ام لا . لان المعنى الذي يمكن ان ينسب الى أية من هذه العبارات محدد بالوظيفة Function او الوظائف التي تقوم بها هذه العبارات ضمن اللغة الدينية . **يعني** أنه محدد باستعمالها ضمن هذه اللغة ، وان استعمالها بدوره محدد بالقواعد اللغوية الخاصة بهذه اللغة **والمستقلة** بدورها عن قواعد أية لغة اخرى خاصة بفاعليـة حياتية غير الدين . كل نظام كلامي Discourse خاص بفاعلية حياتية معينة غير قابل للتحويل ،والقواعد التي يصح تطبيقها ضمن هذا النظام لا يمكن تطبيقها ضمن اي نظام خاص بفاعلية حياتية مفارقة للفاعلية الحياتية المرتبطة به . هذا هو بوجه عام فحوى قضية عدم قابلية الدين للتحويل .

على ضوء هذه المعالجة العامة التي أوردناها للقضية المعنية يمكننا ان نفهم الآن ملاحظات **فيليبس** السابقة حول عدم قدرة الفلسفة او اللاهوت على فرض

مقاييس معينة للمعنى على الدين **من الخارج** . ليس دور الفلسفة ضمن هذا الحد هو التسويغ او النقد بل الفهم . وحتى يفهم الفيلسوف ، في هذه الحالة ، يجب عليه ، قبل اي شيء آخر ، ان يكون مشتركاً اشتراكاً حميماً وصادقاً في الفاعلية الحياتية التي تشكل المفاهيم الدينية اطارها الأساسي[٧] . فالمفاهيم الدينية يمكن فض مكنونها عندما يكون لدينا الامكانية للمشاركة الحميمة في أشكال الحياة وأشكال التعبير التي تشكل هذه المفاهيم جزءها الأوثق . يشدد **نورمان مالكولم** N. Malcolm على النقطة نفسها بتوكيده على انه اذا لم يكن لواحدنا إحاطة متغوّرة في الحياة الدينية واشكال التعبير عنها عبر مشاركته الفعالة فيها ، تبدو له المفاهيم الأساسية للدين ، ومن ضمنها مفهوم الله نفسه ، كأنها « تركيبات اعتباطية ولامعقولة[٨] » . فمن غير الممكن الاحاطة بالمفاهيم الدينية احاطة شاملة عميقة بالنظر الى الدين من الخارج ، أي « دون فهم ظواهر الحياة التي كانت في أساس منشئها[٩] » . وفهم ظواهر الحياة هذه لا يمكن ان يتم إلا بالمشاركة الحية الحميمة في الحياة الدينية .

ما يقوله **مالكولم** عن فهم الدين شديد الشبه بما قاله شبنغلر Spengler عن فهم الثقافات . يشدد شبنغلر بقوة على واقع استحالة تفهم واحدنا لثقافة من الثقافات تفهماً عميقاً دون **توحيد** نفسه مع الثقافة المذكورة ، دون مشاركته بمعنى آخر في هذه الثقافة مشاركة المنتمين اليها . تفكير شبنغلر هنا كبير الفائدة بالنسبة الى الانتروبولوجيين ودراسة الانتروبولوجيا بوجه عام . ولا اعتقد ان احداً يريد ان ينكر ان فهماً مناسباً لشكل ما من اشكال الحياة ، او لثقافة من الثقافات ، يتطلب ، ان لم نقل انه يفرض اندماجاً كاملاً مع شكل الحياة المعني او مع الثقافة المعنية ـ يتطلب من الباحث مشاركة صادقة في شكل الحياة المعني او مع الثقافة المعنية . اذا صح هذا بالنسبة الى فهم الدين ، فالقضية الأساسية ، اذن ، هي اذا ما كان هذا متوافقاً مع القول بأن المفاهيم الدينية او المعتقدات الدينية شديدة الاختلاط ، او تعاني تناقضاً .

لا شك انه اذا لم يكن لواحدنا فهم لثقافة ما أو لشكل من اشكال الحياة مبني على مشاركة اصيلة في هذه الثقافة أو هذا الشكل الحياتي ، فمن الممكن ساعتئذ أن ينظر الى بعض الأمور التي تمارس ضمن هذه الثقافة او هذا الشكل الحياتي ، كأنه خال من المعنى خلواً كاملاً . هذا طبعاً شأن غير المنفتحين ثقافياً Ethnountric . غير المنفتح ثقافياً ، مثلاً ، يميل الى الاعتقاد بأن بعض

الأمور التي تمارس ضمن شكل حياتي معين والمفاهيم المنتمية الى هذا الشكل الذي لا يشارك فيه هو نفسه اما خالية من المعنى او خاطئة او حتى غير معقولة وشديدة الاختلاط. ان هذا قابل للحصول حتى فيما لو كانت هذه المفاهيم المعنية والأمور الممارسة ضمن الثقافة المذكورة ذات معنى وذات معقولية ضمن أطر الفاعلية الحياتية التي تجسد روح الثقافة المذكورة. السبب الأساسي وراء أحكام كالتي يصدرها غير المنفتح ثقافياً على ثقافة غير ثقافته كامن في كون عدم انفتاحه على غير ما نشأ عليه يقوده للحكم على شكل حياتي آخر (او ثقافة اخرى) على اساس المقاييس التي تنشأ عن الشكل الحياتي الذي يشارك فيه هو نفسه والتي تجد تطبيقها بالتالي ضمن هذا الشكل الحياتي. ولكن يجب ان نأخذ بعين الاعتبار هنا الأمر الأساسي التالي: لا شك ان عدم وجود فهم اصيل لثقافة معينة، اي فهم مبني على الاشتراك الحقيقي في مجرى حياة هذه الثقافة، قد يقود واحدنا بعض الأحيان الى اصدار احكام خاطئة على هذه الثقافة. لكن هذا لا يعني بالضرورة ان وجود فهم لثقافة معينة او لشكل حياتي معين مبني على الاشتراك الحقيقي في مجرى حياة هذه الثقافة او في تجسدات هذا الشكل الحياتي يقود حتماً الى قبول هذه الثقافة او هذا الشكل الحياتي. وجود هذا الفهم، بمعنى آخر، لايقود حتماً الى قبول المفاهيم المرتبطة بالثقافة المقصودة او الشكل الحياتي المقصود على انها مفاهيم واضحة ومعقولة. ذلك انه لا يجوز التوحيد هنا بين وجود فهم ايجابي لثقافة معينة مبني على الاشتراك في مجرى حياة هذه الثقافة وقبول الاطار العقلي لهذه الثقافة جملة وتفصيلا. فمن الممكن كما سيتضح في مجرى هذه الدراسة تحقيق فهم حقيقي لفاعلية حياتية معينة، اي فهم مبني على الاشتراك فيها، وفي الوقت نفسه ايجاد **اسباب حقيقية** تستوجب اخضاعها للنقد أو تغييرها او حتى نبذها.

قد يعترض هنا فيلسوف **كفيليبس** او **وينش** قائلا إن الادعاء بأن شكلاً ما من أشكال الحياة يتسم بالاختلاط العقلي Conceptual Confusion أو أنه يعاني التناقض أو عدم التساوق الداخلي، كما أود أن أقول أنا شخصياً عن بعض المفاهيم الدينية، يهمل ناحية أساسية مهمة. هذه الناحية هي أن هذا الشكل الحياتي ذاته يضع قواعده الخاصة به ويخلق مقاييسه لما هو متعقلن وغير متعقلن، متناقض وغير متناقض، معقول وغير معقول ضمن أطر الجهاز العقلي المرتبط بالشكل الحياتي المعني. إذا صح ذلك، فإن من الواضح عندئذ أن عمل الفلسفة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالنسبة الى الدين لا يمكن أن يتوجه إلى تسويغ الدين أو نقده . كل ما يمكن أن تقوم به الفلسفة هو محاولة فهم الدين ، وتعليله ، وإظهار الأسس التي يقوم عليها المنطق الخاص ، بالنظام العقلي النابع من الدين كفاعلية حياتية .

يشدد ج . أ . **هيوز** [١٠] كثيراً على أهمية هذه النقطة في سياق الملاحظات التي أوردها حول كتاب س . ب . مارتن ، **الايمان الديني** Religions Belief ويجعل **بيتر وينش** [١١] هذه النقطة نفسها مدار بحثه في مجرى الملاحظات التي أوردها حول برتو Pareto في كتابه **فكرة العلم الاجتماعي** The Idea of Social Science وفي مقالته المشهورة « **فهم المجتمع البدائي** » . وأود الآن أن أدرس وجهة النظر هذه دراسة أكثر تفصيلاً ، وأن أقيّمها .

السؤال الأساسي الذي يواجهنا الآن هو السؤال التالي : هل من الممكن الإتيان بمقاييس للقول بأن ادعاءات الدرجة الأولى للدين [١٢] First - order religions propositions هي ادعاءات تعاني **الاختلاط العقلي** ؟ لنلاحظ أن المشكلة الأساسية هنا **ليست ما إذا** كانت هذه **الادعاءات** صادقة أو غير صادقة . أعني أنها ليست مشكلة ما إذا كانت هذه الادعاءات **تعبّر** عن حقيقة معينة أم تفشل في التعبير عن أية حقيقة على الاطلاق . المشكلة الأساسية هي إذا ما كانت هذه الادعاءات ذات معنى إطلاقاً او ذات تساوق داخلي او معقولة . لذلك فالسؤال الأساسي الذي بدأنا به هنا سؤال **منطقي** او **فلسفي** صرف وليس سؤالاً **علمياً** او **تجريبياً** . لنضع هذا السؤال أمامنا من جديد : هل ادعاءات الدرجة الأولى للدين تعاني الاختلاط العقلي أو التناقض ؟ او اذا شئنا ، هل هي ذات معنى واضح ؟ يعتقد **هيوز** ان محاولة الاجابة عن هذا السؤال الأخير غير ممكنة حتى منطقياً . لايمكن الاجابة عن هذا السؤال ، بالنسبة الى **هيوز** إلا إذا « سُمح لواحدنا أن يذهب إلى حد القول أنها (أي ادعاءات الدرجة الأولى للدين) يجب ان تتوافق مع منطق مرتبط بمقولات ادعاءات او تعابير مفارقة حتى يمكن ان يقال انها ذات معنى [١٣] . » لكن هذا بالضبط هو ما لا نقدر على عمله . والحاجز بيننا وبين تحقيق ذلك ليس طبعاً حاجزاً **عملياً** . إنه دون شك حاجز **منطقي** . ان يحاول واحدنا تخطّي هذا الحاجز هو ان يحاول تحقيق المستحيل . إن محاولة مثل هذا النوع ، بالنسبة إلى **هيوز** ، لا يمكن ان تكون سوى نتيجة لاختلاط عقلي وسوء فهم لطبيعة النظام العقلي المقصود من التحليل .

نأخذ على سبيل المثال محاولة الطبائعي Naturalist في الاخلاق تحويل الاحكام الأخلاقية إلى احكام تجريبية . لنفترض ان طبائعياً من هذا النوع ادّعى

ان كلمة «حسن» او «جيد» تعني « يقود الى السعادة » . اذا اخذنا « حسن » او « جيد » بهذا المعنى ، يمكن تحويل كل حكم مثل « أ حسن او جيد » الى حكم مثل «أ يقود الى السعادة » . كذلك كل حكم مثل «أ حسن، لأن أ يقود الى السعادة » يمكن تحويله بسهولة الى حكم مثل « أ يقود الى السعادة ، لان أ يقود الى السعادة» او «أ حسن ، لان أ حسن » . العبارتان الاخيرتان ،كما هو واضح، لا يمكن ان يُعتبرا سوى حالتين Substitution Instanus للتوتولوجيا Tautology [١٤] : « ب لان ب » حيث ب هنا يجب ان تؤخذ على انها تحل محل اعلان معين . ان تحويلا من هذا النوع الذي ندرسه يؤدي الى جعل احكام اخلاقية كثيرة خالية من المعنى ، الى جانب العنصر الاساسي للأخلاق ، اعني العنصر التقييمي Evaluative . هذا طبعاً يقود الى نتيجة مذهلة وخارقة الا وهي تحويل الاخلاق كفاعلية حياتية ذات معنى الى فاعلية حياتية أخرى فاقدة المعنى الأخلاقي . هذه النتيجة لم تكن لتحصل لولا محاولة الطبائعي الخرقاء لتحويل الاخلاق الى غير ما هي عليه ، اي الى منظومة من الاعلانات التجريبية بدل الاكتفاء بالتركيز على فهم طبيعة الاحكام الاخلاقية ، كأحكام تقييمية ، في ضوء المنطق الخاص بالفاعلية الاخلاقية ، وكشف القواعد العامة التي تخضع لها هذه الاحكام .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الامر الاساسي الذي يجب التركيز عليه هنا بخصوص القضية التي يثيرها هيوز هو ان دور الفيلسوف في تحليل اللغة الدينية يجب ان يُنظر اليه على انه مماثل للدور الذي يجب ان يلعبه الفيلسوف في تحليل اللغة الاخلاقية . بمعنى آخر ، الفلسفة بالنسبة الى الاخلاق هي كالفلسفة بالنسبة الى الدين . مهمة الفيلسوف في كلا الامرين تتلخص في محاولة اظهار الاستعمال الحقيقي للتعابير والمفاهيم المرتبطة بالفاعلية الحياتية المقصودة من التحليل ، اي فهم معناها على ضوء المنطق العام الخاص بهذه الفاعلية . هذا يعني ان مهمته الاساسية هي في محاولة فهم هذا المنطق وكيفية تطبيقه ضمن الشكل الحياتي المقصود من التحليل الفلسفي وليس في محاولة تسويغه او نبذه وفقا لمقاييس مرتبطة بشكل حياتيّ مفارق .

لنلاحظ ، مثلا ، ادعاء مارتن ان « الله » ، ككلمة ، عندما تستعمل كاسم علم او كعبارة وصفية Descriptive Phrase [١٥] ، يقود استعمالها في كلا الامرين الى التناقض الواضح . استطاع مارتن الوصول الى هذه النتيجة ،بالنسبة الى هيوز ، لانه اساء فهم المنطق الخاص بالدين ، اي المنطق العام الذي يخضع

له استعمال التعابير الدينية بوجه عام . عندما ينظر الى الله كأنـــه شيء مفرد Particular Thing ، فلا مهرب من النتيجة الـتي توصل اليها الفيلسوف مارتن في تحليله . اذ في هذه الحالة ، سواء استعملنا « الله » كاسم علم او كعبـــارة وصفية ، لا مهرب من مواجهة مفارقات من النوع المرتبط بكون العبارات التي يظهر فيها التعبير المقصود من التحليل « الله » لا تخضع للمنطق الذي تخضع له عادة التعابير التي تظهر فيها أسماء العلم أو العبارات الوصفية . ولكن هـــذه المفارقات ، بالنسبـــة الى هيوز ، تزول لحظة ندرك ان منطق « الله » ليس المنطق نفسه المرتبط باسماء العلم أو العبارات الوصفية . ذلك أن الله ضمن التقليد الديني الذي ينتمي اليه اليهودي او المسيحي او المسلم لا يجوز ان ينظر اليـــه كأنه شيء مفرد قابل للتجديد او التعيين كالأشياء التي نشير اليها عندما نستعمل اسم علم ما او عبارة وصفية ١٦ . حين يتوضح ذلك ، يتوضح معه ان المفارقات المنطقية التي توصل اليها مارتن هي نتيجة طبيعية لمحاولة مارتن اخضاع مفهوم الله لمنطق مفارق للمنطق العام الذي يخضع له الدين . من هنا لا يمكن اعتبـــار المفارقات التي قد يكون توصل اليها مارتن عن هذه الطريقة الا نتيجة لتشويش عقلي واختلاط منطقي كبيرين .

هذه الملاحظات تدعونا الى التوقف قليلاً والتأمل في موقف هيوز. يعلـــن هيوز أن الله في التقليد اليهودي – المسيحي لا يجوز ان ينظر اليه كأنه شيء مفرد . فالله بالطبـــع لا يمكن تعيينه او الاشارة اليه كما هي الحال بالنسبـــة للأشياء المفردة . الشيء المفرد ، مثلاً ، يمكن تعيينه مكانياً وزمانياً ، وبالتالي يمكن الاشارة اليه . قد لا يمكننا تحديده او تعيينه عمليـــاً ، ولكن المهم في الموضوع ان كونه شيئاً مفرداً يعني بالضرورة انه قابل للتحديد والتعيين .لكن الله ضمن التقليد اليهودي – المسيحي خارج الزمان والمـكان ، وهذا ينفي تواً حق قابليته للتحديد او التعيين ، وبالتالي كونه شيئـاً مفرداً كسائر الأشيـــاء المفردة . في ضوء هذا التحليل يبدو لنا ادعاء هيوز معقولاً ، اعني ادعاءه في أن « لله » ، ككلمة ، لا يجوز ان ينظر اليهـــا كاسم علم او كعبارة وصفيـــة ، وان اية محاولة لاعتبارها كذلك تسيء فهم المنطق العام للدين . ولكن هـــل يؤدي ذلك حقاً الى انهاء حيرتنا او حيرة مارتن بخصوص مفهوم الله ؟ هـــل وضح لنـــا الآن ما هو الفهم المناسب لفكرة الله ؟ اذا لم تنظر الى الله كشيء مفرد ، كيف يتوجب علينا اذاً ان نفهم طبيعة وجوده؟ كيف يختلف وجوده،

مثلاً ، عن وجود المفاهيم المجردة ، أو بصورة عامة ، وجود الأشياء التي لا نعتبرها عادة أشياء مفردة ؟ لا يمكن ان يذهب **هيوز** بالطبع الى حد اعتبار طبيعة الله مشابهة لطبيعة الأشياء المجردة . فهذا يقود كذلك الى تناقضات منطقية شديدة . لنلاحظ ، مثلاً ، التناقض المنطقي الكامن في قولنا ان فلاناً يصلي لمفهوم مجرد او يطلب المعونة من مفهوم مجرد ، او قولنا ان مفهوماً مجرداً خلق العالم ، او ان مفهوماً مجرداً احب العالم الى درجة ان ضحى بابنه الوحيد من أجل خلاصنا ، وما شاكل ذلك . ان التقليد اليهودي – المسيحي يشير بوضوح الى ان الله يجب ألا يؤخذ على انه شيء مجرد ، وبالتالي ان منطق « الله » مفارق لمنطق المفاهيم المجردة . ان إله هذا التقليد هو دون أدنى شك ، إله **شخصي** . ومن الأمور الأساسية ضمن هذا التقليد اعتبار الله فرداً . لكن ألا يبدو أن في هذا الاعتبار دليلاً واضحاً على ان الله يجب ان يفهم كشيء مفرد ؟ أو ، على الأقل ، ان مفهوم الله يجب ان يعقل بطريقة مماثلة للطريقة التي نعقل فيها مفهوم الشيء المفرد ؟ جوابنا عن ذلك يجب ان يكون بالايجاب ، لأن منطق « فرد » هو المنطق نفسه الذي يخضع له التعبير « شيء مفرد » . يظهر ان لدينا هنا اسباباً ظاهرية ، على الأقل ، لاعتبار مفهوم الله مفهوماً تناقضياً بالمعنى الذي قصده **مارتن** . الله ، من ناحية ، **ليس هذا ولا ذاك** . انه غير قابل للتحديد او التعيين . ومن ناحية أخرى ، يجب ان ننظر الى الله على انه **فرد** يستجيب لصلواتنا ، ويحقق المعجزات ، ويحكم ويثيب ويعاقب ، الخ . ولكن يظهر ان الامرين غير متساويين منطقياً على الاطلاق . لنأخذ مثلاً كلمة « فرد » . هذه الكلمة تنتمي الى اللغة العامة Overall Discourse – العربية في هذه الحالة – التي يشكل الدين احد أجزائها . ومنطق استعمال هذه الكلمة هو المنطق الخاص بهذه اللغة العامة . انه منطق الأشياء المفردة القابلة للتعيين والتحديد . كيف يجب علينا ، اذن ، ان نفهم العبارة « الله فرد » اذا لم يكن الله ليفهم على انه شيء مفرد ، أعني شيئاً قابل للتحديد والتعيين ؟ أليس هناك اختلاف واضح بين منطق « فرد » ، ومنطق « الله » ؟ واذا صح ان هذا الاختلاف موجود ، أفلا يسوّغ ادعاؤنا بأن هناك تناقضاً منطقياً حاصلا عن مزج منطق « فرد » بمنطق « الله » ؟

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ملاحظات واشارات

١ - D. Z. Phillips, « Philosophy, Thelogy, and the Reality of God, » in the **Philosophical Quarterly**, Vol. 13, No. 53 (October : 1963), P. 345

٢ - Ibid.

٣ - Ibid.

٤ - Ibid. P. 346

٥ - Ibid. P. 347

٦ - Peter Winch, **The Idea of a Social Sciences**, (London:1958), PP-90-91

٧ - Paul Ziff, «About Good» in **Religions Experience and Truth**, edited by Sidney Hook, New York univ. Press, (New York : 1961), P. 196

٨ - Norman Malcolm, « Anselm's Ontological Argument. » **The Philosophical Review**, Vol. L XIX, No. 1 (January, 1960)

٩ - Ibid.

١٠ - Hughes, « Martin's Religions Belief. » **Australasian Journal of philosophy**, Vol. 40, (August : 1960), PP. 211 - 219

١١ - Winch, « Understanding a Primitive Society, » **American Philosophical Quarterly**, Vol. 5, (October, 1964), PP - 307 - 329 and **The Idea of a Social Science**), Op. Cit.

١٢ - يجب التمييز بين ادعاء من الدرجة الاولى وادعاء من الدرجة الثانية . ما يقوله اللاهوت أو ما تقوله الفلسفة عن الدين ، مثلا ، يشكل ادعاءات من الدرجة الثانية . هذا يعني أن اي ادعاء حول الادعاءات الدينية ، - ادعاء من النوع الصادر عن محاولة تأويل ادعاءات الدين أو تفسيرها وتبريرها - هو ادعاء من الدرجة الثانية . والادعاءات الدينية كما هي وكما يجب أن تفهم على ضوء المنطق النابع من الدين كفاعلية إجتماعية ، أي معراة من أي لباس فلسفي أو لاهوتي ، هي ادعاءات من الدرجة الاولى . هذا التمييز مهم لان هناك كثيراً من ادعاءات الدرجة الثانية دخل الدين وقُبل على أنه جزء من الكلام الديني . وعندما يعالج وينش أو هيوز موضوع كون الدنيا غير قابل للنقد من الخارج فهو يشير الى الدين قبل أن تفسده الفلسفة او يفسده اللاهوت - أي الى ادعاءات الدرجة الاولى للدين .

١٣ - Hughs, op Cit. P. 214

١٤ - التوتولوجيا Tautology هي توكيد منطقي Logical assertion تضمن صدقه القوانين المنطقية وحدها ، وهو بالتالي ليس ذا معنى وصفي Descrptive أو تجريبي Empirical . يظهر ذلك بوضوح من واقع كون صدق توتولوجيا مثل « ب لان ب » ، أو « ب تتضمن ب » مضموناً بغض النظر عما إذا كانت « ب » صادقة أو غير صادقة تجريبياً .

١٥ - العبارة الوصفية هي عبارة من هذا النوع : «أب فلان» ، «مؤلف الكتاب الفلاني» إلخ . إنها عبارة من النوع الذي يتضمن وصفاً ينطبق على كائن معين دون غيره من الكائنات .

١٦ - Hughes, op. cit, P. 215

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمد الماغوط

شواطئ متعرجة لا يحدها البصر

١ — حلم

منذ ان خلق البرد والابواب المغلقه
وانا امدّ يدي كالاعمى
بحثاً عن جدار
او امرأة تُؤويني
ولكن ماذا تفعل الغزالة العمياء بالنبع الجاري
والبلبل الاسير بالأفق الذي يلامس قضبانه
في عصر الذرة والعقول الالكترونيه
في زمن العطر والغناء والأضواء الخافته
كنت أُحدثها عن حداء البدو
والسفر الى الصحراء
على ظهور الجمال ،
ونهداها يصغيان إليّ
كما يصغي الأطفال الصغار
لحديث ممتع حول الموقد
كنا نحلم بالصحراء
كما يحلم الراهب بالمضاجعه
واليتيم بالمزمار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكنت اقول لها وانا ارسل
نظراتي إلى الأفق البعيد :
هناك نتكىء على الرمال الزرقاء
وننام صامتين حتى الصباح
لا لأن الكلمات قليله
ولكن لأن الفراشات المتعبه
تنام على شفاهنا .
غداً يا حبيبتي غداً
نستيقظ مبكرين مع الملاحين واشرعة البحر
ونرتفع مع الريح كالطيور
كالدماء عند الغضب
ونهوي على الصحراء كما يهوي الفم على الفم .

ونمنا متعانقين طوال الليل
وايدينا على حقائبنا ،
وفي الصباح ، أقلعنا عن السفر
لأن الصحراء كانت في قلبينا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢ — النخاس

الاسم : حشرة
اللون : اصفر من الرعب
الجبين : في الوحل
مكان الاقامة الدائم : المقبرة او سجلات الإحصاء
المهنة : نخّاس
البضاعة : رمال ذهبية وسماء زرقاء
عواصف ثلجيه
وشواطىء متعرجة لا يحدُّها البصر
لارهاق الملاحين ومصممي الخرائط .

عندي غبار للقرى
رمد للاطفال
وحول للأزقه
وحجارة لصنع التماثيل وقمع المظاهرات

*

عندي آباء للتذمّر
امهات للحنين ،
ارصفة لبيع الزهور
وغابات لصنع السفن والقباقيب وصواري الاعلام .

*

عندي ثلج للعصافير
وخريف للغابات
سعال للأزقه
ونوافذ عالية لمناداة الباعة ، للاستغاثات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

*

عندي كل شيء ايها الساده
نسور ، اعقاب سجاير
نشارة خشب
صفائح فارغه
وعندي ... شعوب ..
شعوب هادئة ، وساكنة كالادغال
يمكن استخدامها
في المقاهي والحروب وازمات السير .
اسرعوا ايها الساده
ها هو الليل يقترب
وعليّ ان انهي صفقتي
قبل غياب الشمس
اخرجوا محافظكم ولا تخيفنّكم اسعاري :

كل الفتوحات العربيه
مقابل سرير
كل نجوم الشرق
مقابل عود ثقاب
لاهتدي الى اقرب حصاة
او مسمار في هذا الوطن
اغرسه في صدري كمنقار البجعه
واموت .

٣ - الخوف

امي ...
يا ذات النـّهد الملوّن كالاكواخ الإفريقيه
اسرعي لنجدتي
تعالي وخبئيني في جيبك الريفي العميق
مع الإبر والخيطان والازرار
فالموت يحيق بي من كل جانب
السماء تظلم
والريح تصفر
والكلاب السوداء
تنهش الكتب الدامية من حقائب الماره
واخشى في هذه الايام المكفهره
ان استيقظ ذات صباح
فلا اجد طائراً في السماء
او زهرة في جديله
او صديقاً في مقهى
ان اوثق ذات صباح
الى المغسلة او عمود المدفأه
ليدرزني الرصاص
والفرجون في فمي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اتوسل اليك ان تسرعي يا امي
وان تعرّجي في طريقك
على الحصادين ومضارب البدو
وتسأليهم عن « حجاب » جلدي
عن « عشبة » ما
تقيني هذا الخوف :
ادخل الى المرحاض واوراقي الثبوتية بيدي
اخرج من المقهى وانا اتلفّت يمنة ويسره
حتى البرعم الصغير
يتلفّت يمنة ويسرة قبل ان يتفتح .

*

آه يا امي
لو ان هتلر بقي رساماً
وماركس مات في خنّاق الطفوله
لو ان لويس السادس عشر
كان اكثر فحولة وبطشاً
وماري انطوانيت اقل فتنة وكبرياء
لو كان الضباب كثيفاً حول فرساي
وسلالم الثوار اقل ارتفاعاً وصلابه
لو كانت قلاع الباستيل على ذرى قاسيون
ووحل باريس على ارصفة دمشق
لو كان الشرق هشيماً
والريح اكثر قوة وذكاءً
عندما احترقت روما .
آه يا امي ،
لو كانت الحرية ثلجاً
لنمت طوال حياتي بلا مأوى .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤ – بعد تفكير طويل

لي بردى الازرق
ولكم دمشق الحمراء .
انزعوا الارصفه
فلم تعد لي من غاية اسعى اليها .
فرّغوا جيوبي من النقود
وادراجي من الكتب
وشراييني من الدماء
واملأوها ليلاً
فليس هناك ما اودّ رؤيته بعد اليوم .
كل شوارع اوروبّا تسكّعتُها في فراشي ،
اجمل نساء التاريخ
ضاجعتهنّ وأنا ساهم في زوايا المقاهي .
احرموني من الحذاء والمعطف والمصطَلى
سأنام في العراء
لست افضل من الصخور والانهار
خذوا كل شيء
ولكن اعيدوا لنا قروحنا وأنين مرضانا
أعيدوا لدمشق الغبراء
سفنها الغازية ، وموجها الآراميّ .

*

قولوا لوطني الصغير ، والجارح كالنمّر
انني أرفع سبّابتي كتلميذ
طالباً الموت او الرحيل
ولكن ،
لي بذمتّه بضعة أناشيد عتيقه
من ايام الطفوله
وأُريدها الآن

لن أصعد قطاراً
ولن اقول وداعاً
ما لم يعدها اليّ حرفاً حرفاً
ونقطة نقطه
واذا كان لا يريد ان يراني
او يأنف من مجادلتي امام المارّه
فليخاطبني من وراء جدار ،
ليضعها في صرّة عتيقة ، امام عتبه
او وراء شجرة ما
وانا اهرع لالتقاطها كالكلب ،
ما دامت كلمة الحرية في « لغتي »
على هيئة كرسي صغير للاعـــدام .

*

قولوا لهذا التابوت الممـــدد حتى شواطىء الأطلسي
انني لا املـــك ثمن المنديل لأرثيه .
من ساحات الرجم في مكـــه
الى قاعات الرقص في غرناطـــه
جراح مكسوّة بشعر الصـــدر
وأوسمة لم يبق منها سوى الخطّافـــات
الصحارى خالية من الغربان
البساتين خالية من الزهـــور
السجون خالية من الاستغاثات
الأزقة خالية من المـــاره
لا شيء غير الغبـــار
يعلو ويهبط كثدي المصارع
فاهربي ايتها الغيـــوم
فأرصفة الوطـــن
لم تعد جديرة حتى بالوحـــل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٥ – الغجري المعلب

بدون النظر الى ساعة الحائط
أو مفكرة الجيب
اعرف مواعيد صراخي
وأنا هائم في الطرقات
أصافح هذا وأودع ذاك
أنظر خلسة الى الشرفات العاليه
الى الأماكن للتي ستبلغها اظافري وأسناني
في الثورات المقبله
فأنا لم أجع صدفة
ولم أتشرّد ترفاً أو اعتباطاً
ما من سنبلة في التاريخ
الا وعليها ذرة من لعابي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

*

اعرف ان مستقبلي ظلام
وأنيابي شموع
أعرف أن حد الرغيف
سيغدو بصلابة الخنجر
وان نهر الجائعين سوف يهدر ذات يوم
بأشرعته الداميه
وفرائصه الغبراء
فأنا نبيّ لا ينقصني الا اللحية والصحراء
ولكنني سأظل شاكي السلاح
في قادسية العجين ،
في واترلو الحساء التي يخوضها العالم
هكذا خلقني الله
سفينة وعاصفه

غابة وحطابــاً
زنجياً بمختلف الألوان كالشفق ، كالربيــع
في دمي رقصـــة الفالس
وفي عظامي عويـــل كربلاء
وما من قوة في العــالم
ترغمني على محبة ما لا أحب
وكراهية ما لا أكره
ما دام هنــاك
تبغ وثقاب وشـــوارع .

٦ – الشبح

أنت ،
يا من تداعب خيوط المطر
كالنساج الأعمى
وتتلمس بقايا الجداول الزرقــاء
كضرير يتعرف على ملامح احفــاده
مـــن انت ؟
ايتها الشـــوارع
أيتها الحـــانات
من هذا الشبح الراقـد على الأرصفــه
والنمل
يتجاذب مسبحته ومنديـــله
وخصلات شعره ؟
– انه بردى ..
– بردى ؟
لا اذكر اخاً او صديقاً بهـــذا الاسم
اهو صندوق ؟ ام جدار ؟
– مولاي
انه بردى ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النهر الذي ترافقه الزهور العطشى
من نبعه الى مصبـــه
– ليراجعني غداً ،
في مكتبي القائم بين الأرصفـــه
علني أجد له ميتماً بحرياً
أو سحابة شمطاء تتبناه .
– مولاي
انه ليس متســـولاً يا مولاي
انه بردى ..
بردى الألثغ الصغـير
كـُبرَ وشبَّ ،
واهترأت مريلته الخضراء على صــدره
ولم يعد يغادر مجراه
حتى في الليالي المقمره
حتى في ايام العطل والآحــاد
انه يعتذر عن جريانه القـــديم
يضم راحتيه الى صـــدره
ويفتحها باكياً ، كالراهبة المغتصبه
من اجل سفينة ورقيـــه
او سنونو .. يرشف ماءه ويطير .
– ليكن
لقد وهبـه الله
كلَّ ما يحلم به نهر صغير
من الطبقة المتوسطـــه
الوحل والبعوض والربيـع
ولكنه أتى على كل شيء
في حقبة واحـده

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أروع مطر في التاريـــخ
أجمل سحب الشرق العاليـــه
بددها على الغرغرة وغسل الموتى .
ليراجعني غداً
في مكتبي القائم بين الرياح
وطلب الاسترحام
ملصوق على ضفتيـــه
ان جلد النسر المعلّق على الحائط
لا يثير شفقتي
بل يذكرني
بدم اشلائـــه وصرخات ضحاياه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٧ — من العتبة الى السماء

الآن ،
والمطر الحزين ،
يغمر وجهي الحزين
احلم بسلم من الغبـــار
من الظهور المحدودبه
والراحات المضغوطـــة على الركب
لأصعد الى اعـــالي السماء
لأعرف ،
اين تذهب آهاتنا وصلواتنا ؟

*

آه يا حبيبتي
لا بد أن تكون

كل الآهـــات والصلوات
كل التنهـــدات والاستغـاثات
المنطلقـــه
من ملايين الأفواه والصـدور
وعبر آلاف السنـين والقرون
متجمعة في مكان ما من السماء ... كالغيوم
ولربمـا ،
كانت كلمـاتي الآن
قرب كلمـــات المسيـح !
فلننتظر بـكاء السماء
يا حبيبتي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سركون بولص

عاصمة آدم

١- درويش يحدق في المحيط ويرى امرأة

في الصواري إمرأه
ويداها قريتان
وأنا البحرُ الذي يعرفهـا
وهي دوني مطفأه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في الصواري إمرأه
ويداها تقتُلان القادمين
تقرآن الخُطط السوداء في رأسٍ وحيـد
تقرآن الليلَ في ضـوء السلاحف
تقرآن المدَّ في خارطـةٍ
عَبْرها تزْبدُ أرواحُ التعاسه
وخيولٌ تعبت ، ترعى تجاعيدَ المحيـط
أسْحرُ العشبَ بنارٍ في التماثيلِ وأجتازُ متاريس الحراسـه
نائماً ، أو غـير نائم

في الصـواري إمرأه
يلدُ البحرُ على أقدامهـا
إبرةَ الموت وآلاف التمائم .

٢ - امرأة

أَلخُطى
وحدك الضائعُ اللحم في مائهــا
وحدك العائم المنتهي بين أعضائهــا
تفتحُ البحرَ ليلاً وتلهثُ في سرّة العاصفــهْ
لترافقَ موتك في ليــل أضوائهــا
في امرأه
تسحبُ الرغبةَ الجارفــهْ
من وعاء الأسابيــع تصطـــادُ أيّامكَ النازفــهْ
لتنامَ على رملها ، لتسيرَ على مائهـــا ...

٣ - غابة القناني المليئة شقاء

أتوغّلُ بين مجرّاتٍ سوداءَ من الأصــواتِ
لكنَّ الأطفالَ هنــا بالقربِ من الأيام
والموتُ يقلّمُ باللحظات عظـــامَ الآتي
وعذابي يبهرني ، ويفورُ على أقــدامي

كان لعقلي أن يتقوّسَ فوق البحرِ طويلاً ، فوق نهودٍ عميـــاءِ
أعلى من خطأي
يلمسُ بالنار مفاتيــحَ سمــائي
ويعرّفني بالعـــالم ، بالعـــالم والموتى

ألصوتُ .. ولكني لا أنتظرُ الصـــوتا !

٤ - وحيد في ارارات

رُجــلٌ يجلسُ فوق الأرض في بردِ أراراتٍ ، أنا
أنا ذاك الرجـــلُ

نائمٌ فوق أرارات . ولمْ
يكتشفْ رسْغَ أبيهِ
وعظامَ الأختِ ، نائمْ

أنا ذاك الرجُلُ !
ذلك الخوفُ المسافرْ
في البدايات ، وفيها
تسْفرُ الآلامُ عنهُ
تسْفرُ الآلامُ أسماكاً تجوسُ القلبَ أشجارَ بكاءْ

ولأني خشبَهْ
في المياه الصالحهْ
لم أردْ ان أتخشّبْ
كنتُ شفّافاً وفوقي إمرأهْ
او مظلّهْ
يُرْجعُ البحرُ نقودي
انه يرفضُ ان يحملني

ألغيومُ امتلأتْ باليقظهْ
وارتقتْ هيكلَ صدري
كبياضاتٍ غريبهْ

انني عُشبةُ حُبّي
وأنا قشرةُ موتي
أنا ذاك الرجلُ العالقُ في هيكل أيّامي في ثوب المحيطْ
أشبهُ الساعةَ في الصحْراءِ والجذر المميتْ
إنني أشبهُ أطفالَ الحارهْ

جاثمٌ فوقي وحيدٌ في أقاصي جسدي
ميّتٌ فيَّ ، وحيٌّ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنتَ ، أنتْ !

٥ - نصوص وفية

تُوفيت قواربي
وليس لي
سوى يـــدٍ معقوفة فوق سيـــاج نبضتي
لا تعرف السباحــــهْ
في زيتِ ليلي الكثيفْ
لا تنتهي من موتهـا
يد نبيــلةٌ بلا جرائم
تصعد من مرتفعات البلبـــل الميْت

تُضيء ميرابو .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٦ - منفى

والآن سأقطعُ خيطَ الفجـــرْ
كم يعلو الصوتُ ، يُعيدُ اليّ عيـــوني
وأُغامرُ في مُدنٍ مثقلةٍ بالعميانِ
يملكني الصوتُ ، ويدعـــوني
ظلٌّ حياتي المجهـــولهْ

أرضٌ كالموجة تصعدُ تحت جبيـــني
وضجيجُ الموتى الهــــادىءُ ، رعبي وحنيـــني !
كنتُ أريـــد مرائيَ نومٍ
بـــين نهودٍ منفيّــــهْ
نومٍ في وطـــنٍ
يتهيـــأُ للصمت قريبـــا
لكنّ شفاهي المقتولهْ

لا تعرفُ الا زَبَـــدَ الأغنيــهْ
ويعودُ تردُّدُهـــا يغمرني كالمنفى

الآنَ سأعرفُ كيفَ أموتُ غريبا .

٧ - عاصمة آدم

١

يا آدم
إسحرْ هـــذا البَحرْ
بيديكَ الطّافيتَـــينْ
فوق نسيـج الموتْ

وليتحوّلْ عاشقـــةً
يركض بين موانئها فمكَ المفقـــودُ
واسحرْ عاصمـــةً وتقلّبْ
في موتك ، واستســلمْ
سيقودك نحوي نهـــرٌ
أطفالٌ ، سمـكات سودُ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢

آدم يعـــبر في مرآة الرملْ
يلتقط العاصفة السّـــوداءْ
من بين ثيابهْ
بين قواربَ لا يصل المدّ اليها
يلتقط اللؤلؤة المحفوظة في الاعشـــابْ

٣

ماذا قلت ، وأينَ ترامى الصوتُ ؟ تجاعيدُ ليليّـــه
تظهر في صوتي وخيول جائعـــةٌ

تأكل لؤلؤة تسحب منهـــا
أحشاء الابديّه

لم تكن الأصوات سوى أعشـــابْ

ووعاء يحفظ ضوء اللحمْ
أُوقعَ ، فانسكبت رغبـــهْ
وارتفعتْ في عنقي

٤

واختُرعت ايدينا لتشير وتبني
وتحرّك أقنعـــة في الشمس ستمتـــليءُ
بتجاعيدِ البحر النائم في السّـــاعاتْ
وسيملؤها الصـــدأُ

٥

أي صدى عرّفـــني
وصديق حرك لي انسجة الحـــيرهْ
لليل تركت ردائي ونداءاتي
ألمس آدم حولي فـــأرَى
بقراتٍ تصعد من قيثـــارْ
بهدوءٍ ، وتسيـــل وتمضي
لتخرّب أسيجة الآتي .

٦

لكنْ ، لحياتي منفى
في بابـــلَ والبحر
َفنارٌ مفقودُ
أو بيتُ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تصعد من بين قناتين
اذا جاء الليلُ ،
فتاةٌ
وعلى اعضائي تترك لؤلؤ نهديها
وتضيء حوالينا اسماك ونقودُ

٧

آدم ينزل في مرآة الرّملْ
يصعد نحو صخور امرأةٍ
يتجول حول فمٍ
وتحيط بهِ أفواهُ
إختارْته
دون نذيرٍ عاصفةٌ
طرحته في زبد الأفعى
وانفتحت يدهُ
فتساقط منها اللهُ .

٨

آدمُ ، أنت أنا
ودمائي تجري في رسغيكَ
وفي أعشابك أُطلق أفعى ألفاظي

لأحرّر او أخنقَ
عصفور النار النائم فوق قصيده

يغلي فيها العالم والماضي

حسين عبد اللطيف

الشخص خارج القوس

١ - ثلاثة وجوه من المحلة...

١ - عيسى عمران

كانَ أبو العلاء .. صاحبَهُ
سلّمهُ الخـــلافه
وقـــال لهُ : ـ
تسلّمِ الخلافـــه
وبعد أن تكــّل المسافـــه
إجعلْ زمامهـــا ..
لمن أتى بغير ما أتت به الأوائـــلُ
ولا تعاشر النساءْ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢ - ابو صَلَبْ

كنخـــلةٍ قـــد لبستْ معاطف الخريفْ
بلا عصافـــير ..
ولا تاجٍ ..
ولا رُطبْ
ودونما حفيف !

تنفضـــك الرياح
اغانياً .. لكنها .. حزينه

– يا قلبُ .. يا سفرجلهْ
في الصيف تذبلين والشتـــاءْ
ألماء ذقت أعســـلـَه
ونحن في الشقاء .
أتحمـــلُ القِربْ
نِياقيَ الظماءْ ؟
أتحمـــل الذهبْ
وترتعي العاقول والسّغبْ ؟

مَنْ ذا يقول يا ابا صَلـَبْ
لكـــل عشبٍ يابسٍ ... مطـــرْ !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ – ملامكي

يا ملكـــاً .. على ممالك النعـــاسْ
يستيقظ الموتى ولا يقـــومْ
يا ملكاً يضرب تحتَ الرمـــلِ والنجـــومْ
زرقـــاءُ لم تبـع عيوَنـــك الفِراسهْ
وانت ما عرفتَ غيرَ (قلْ اعوذُ) من صحائف السياســـهْ
رفعت رايتـــينْ
واحدةٌ ، تلطخت بكربلاءَ من دم الحســـين
ورايةٌ مغسولة بالدمـــع والضراعـــه
ألفقراء اخـــوةٌ في الجوع والرضاعـــه
وانت بين بَينْ
غرستَ في جبينك القناعـــه
فضجّ حاتمٌ براحتيك يشتم الطعامَ يشتم المجاعـــه
كم من رؤىً رأيتْ

كم مجلس اقمتَ او غشيتْ
وعندما بسملتَ او عزمتْ
على بخور الصندل – اللبانْ
جاءت حشود الجان تركب الغبـــار
الى موائد الوليمــه
وكان أنْ ... كالثقب يــنزف الميـــاه
خسرتَ كوكب الغنيمه
ومت ميتتـــين

وفي منافذ النهارْ
يلبسك الظلامُ كالعباءه .

٢ – نافذة على الشارع ...

أعلنتِ العاشره
والنصف ، ليلا ، دقة الساعهْ
نافذة الشـــارعْ
مطبقـــة الاهداب ، تبكي نجمـــة ساهره
والريح في الساحـــهْ
هائمـة حائره
ترتجف الاغصان
وفي سكون الليـــل تعوي الكـــلاب
فتوقظ الساحــــه
شيئـــا ..
فشيئـــا ..
أفتـــح الأجفانْ :

لم المح البستان
لم المح الحارسَ والسكران
لم المح الفضة في الألوان

*

لمحتُ نفسي آخر الساحهْ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ - نواقيس صغيرة

- أجراس يا أجراسْ
- ماذا يروم النـــداء ؟
- لا توقظي السارين عبر النجـــومْ
لا تشربي نومي ونبـع الصبـــاحْ
دعي غناء الرياح
ينهمر الريحان
ينهمر الليمون
والزيتون
والرمانْ
ينهمر القيثـــار في الصمتِ

منهمراً ، آه دعي صوتي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤ - زهرة اللوتس

اريد أن انســى
عوالماً تنهــار في ذاتي
تقطع خيـــط الصوت خيط المطـــر
تلقي رماد الموت فوق الزهرْ
ويورق الصبّارْ : -
مدينةٌ مظلمةَ الاغـــوار
ما مرّ فيهـــا القمـــرْ
مهرجـــاً يبـكي
بيتاً بلا اطفـــال
شجيرة يابسة ، اخبارْ
عـــن ميّت ، عن مسرح مهجـــورْ
محطة موحشـــة ، شحاذْ
جواب آفاق - بلا افق - ولا تذكارْ

ونورساً مكسورْ
اريد اصـــواتي
تخترق الأسوارْ
تجهـر بالأسرار
تثقب حق الطين حتى الحجرْ
اغنية خضراء
اغنية كالمـــاء
فيها نهـــار الحبّ يسقي مدن العـــالمْ
يثمر منها الشجر
ويرقص العصفور والازهار

يا زهرة اللوتسْ
يا زهرة النسيان
خلي ليّ التذكار
موطنيَ المطفأ
اريد أن انسى
إلاّه يا زهره
إلاّه يا زهره .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٥ ـ الشخص خارج القوس ...

كيف تدعو ذلك الأسود : نجمـــهْ
وسيوف البرق : فحمـــهْ
والخرافات : يقين
ومياه المدّ : جزرا
تحمل الطين وتنسى الأشرعه ؟
أنت لم تُخـــرج من الابرةِ خيطـــا
أنت لم تبرح مكاَنـــك

امسِ ، سافرتَ ...

ولم ترحــــلْ !

ولم تبقَ !

ولم تلْوِ عنانــك

غير ايدي الزوبعــــه .

غير أني : ارتدي البحر وقاماتي الصــــواري

أعقلُ الريح ...

رجعتُ

لم أعد أندم أو أبـكي طويــــلا

مثل أنقاض السفــــين

يشتهي البحر ويشتاق النخيــــلا

وتذكرتُ ..

قليلا .. فقليلا

ما الذي أفعله الليلةَ او بعد سنــــين

من حيــــاتي

كان شخصــــاً .. خارج القوس .. يغني اغنيــــاتي

وعلى الشارع شحاذ غريب

كان يبـكي :

« عندما ينشج في الدرب المطر

ويغني الأصدقــــاء

اعبر الجسر الى حيث البـكاء

واقفاً ، يمنح باقــــات الزهر . »

هطلت تلك السحابه

لِمَ لمْ تسقطْ سحابــــه

عنــــد صيفٍ في الشّجَرْ

عندما نام القمر

في محــــاره

وانا خلف الزجاج

أحتسي شاي السّهَرْ ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رفيق شرف

رثاء عربي في عرس فتح
(نصوص ورسوم)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في زمن فتح تنهار كل العبادات ويصبح الملـــل والضجر والانسحاق سيوفاً وخناجر وأعراساً. لست شاعراً، انا محرّض في زمن فتح. ر.ش

الهزيمة ساكنة كجثة في مســـاء الشرق
الريح تمزّق ثيابها والبيوت تغلق نوافذهـــا
في مساء الشرق
الدخان كفن رمادي في مســـاء الشرق

الدروب الطويلة تضرب النوافذ الخالية في مســـاء الشرق
الابواب تنحني للغزاة ، والمآذن تنكّس ابراجهـــا
في مساء الشرق .

لم يعد هناك شيء منيـع
لم يعد هناك شيء الا الموت والضياع والعــــواء
في مساء الشرق

أذكر كل شيء
اسم كل قرية وكل مدينـــة
وصلاة كل بيت
وبـكاء كل بيت
في مســـاء الشرق

أذكر كل شيء
طفولتي وبيتي والحقول والتـــلال
وغرفـــتي الغارقة في الشرق
غرفتي الكئيبة في مســـاء الشرق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أذكر كل شيء
رمضان والذكر والصوم ووجه الهلال والاساطير السحيقـــة
والتجويد والله والحقيقة في مساء الشرق

أذكر كل شيء
حديث النبي الشريف
ويوم الحشر وصوت الإمـــام العلي والصهـــوة المجـــدة والسيف
وصورة الأمام المطرّزة في مساء الشرق

(قيل انهم سقطـــوا جميعاً اشلاؤهم لا تشبه شيئاً ، موتهم عظيم ، موتهم عظيم)

كانوا سعداء مثل مئذنة وفضـــاء
كانوا درة ، وكانوا معجزة .

سأقرأ الحجاب للريـــح والصمت
سأفتح الحجاب لله والموت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سأكشف الحجاب لغفوة وأمة
وليوم القيامة سأفتح الحجاب .
« وكنتم لله أولياء ...
وكنتم
خير أمة »

(قيل انهم عصوا أمر ربهم وأرضهم ودمهم وباعوا القبور والتلال والجسور وطمروا حجر القدم ومحوا كل اثر ..)

سأقرأ اوراقي القديمة
سأطعم للنار اوراقي القديمة
للنار ، الكلام والسلام والفضيلة
وفي النار الحقيقة
في العيون والخيام ،
في النوافذ والسرائر في الليل والنهار
وفي القبور انتظار
يا أيها الذين آمنوا

في القبور انتظـــار
في الجنة انتظـــار
فكيف لا تعلمون ؟
اما قيل لـكم
الموت والنصر والوعد
فكيف لا تؤمنون
يا ايها الذين كفروا كيف لا تذكرون ؟

(قيل انهم خمدوا ونسوا آيات الاله ، نسوا كل شيء ، الجنة والآخرة الدنيا ، وجنات النعيم !)
قل كيف سكنوا ؟

(كنت غريقاً ، غريقاً في فضاء موجع ، عندما سمعت صوتـــاً « ولا تفرقوا ، ولا تناحروا فتذهب ريحكم » .)

انهم بلا إله
بلا قبلة أو قضيـــة
بلا ساحرة ولا جنيـــه
ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com
فأسقط ... أسقط
في عزلة بلا نهاية ، بلا نجمة ولا بدايـــة
واقرأ في الحجاب النـذير :

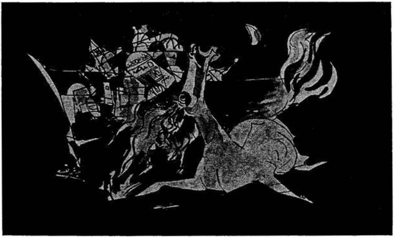

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قُلْ انهم سقطوا
قُلْ انهم نسوا
صوت نبيّ فــــارس
وسيف إمام منــــذر ...

(كانت اوضهم زينة الدنيا ؛ وكانوا سيف الشرق والإله والكلمة)

كيف لا يكون احد في هذا الصمت ؟

اسمع صوتاً

في النار ، في الذل
في الشعر اسمع صوتاً
في الصحراء في الريح في القلب في الدم في الغبـــار
اسمع صوتاً :

(باعوا الارض ، وقتلوا اسم الوطن ، وخبأوا اسماءهم والمفاتيح في الاواني القديمة)

سأقرأ حجـــابي
السرُّ في حجابي

السرُّ يقرع بابي
« كل شيء تغيّر »
الصغار يكبرون
ذهبوا الى أمّهم فتـــح
في عيونهم غبـــار
ذهبو الى وطنهم فتـــح
في عيونهم غبـــار
حملوا خنجر فتـــح
في عيونهم غبـــار
الشعـــار حرب
والأرض نار
كل شيء تغيّر
السلاح في القلب
وكلمة السرّ في الدم والريح والأرض والشجـــر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جمال ابو حمدان

ملصقات على حائط عتيق

١ - الحلم

في الصباح ، سأل طفل أمه :

— ما هو الاخطبوط ؟

قالت الأم :

— انه الاخطبوط . ولم تستطع ان تفسر ، فابتسمت . كان الطفل قد استيقظ لتوه . ولاحظت الأم أن ظلاً للذعر يملأ حدقتيه فمسحت بيدها على رأسه . عندها روى الطفل لأمه حلمه :

« انه في باص . باص المدرسة على الأرجح . الاطفال يمرحون ويهزجون ، ثم فجأة ، توقف الباص في صحراء » .

« هكذا وجدوا أنفسهم في الصحراء » (العبارة ليست للطفل) . سأل الطفل أمه : ما هي الصحراء ؟

قالت : مكان يكثر فيه الرمل والشمس ، وتقل الحياة . أطبقت فمها خشية ان يلتقط الطفل الكلمة الأخيرة ويسألها عن الحياة . الا انه أكمل : « وفجأة خرج من قلب المكان اخطبوط » .

قالت الأم : الاخطبوط لا يعيش في الصحراء .

ضرب الطفل قدمه بالأرض ، وكز على اسنانه ، وقال : لكنه خرج . ثم أكمل بصورة طبيعية : « وصرخ كل الأطفال ، ولم اسمع صراخهم ، وصرخت ولم أسمع صوتي ».

استمعت الأم لحلم الطفل ، وقبّلته ، ثم اخذت تعده لباص المدرسة . وعلى الباب قالت له «لا تخف ، انه حلم» وحاولت ان تقول كالعادة «انه فألحسن». الا انها لم تقدر ، فاستدارت ودخلت .

قبيل المغيب ، جاء الأب . كان تعباً ، وكان الطفل قد نام لتوه ، والأم تنتظر . ولم تكن الشمس قد غابت تماماً ، الا انها لم تُلق ظلاً لجسدَيْ الأم والأب ، عندما تدانيا . وكان الاب اكثر من متعب ، فسألته الأم « ما بك ؟ »

قال : « لا شيء » (صمت وخطا خطوتين) . « ولكني في فترة القيلولة ، رأيت حلماً غريباً » وقص عليها ؛ انه في مكان ما بغير ملامح واضحة مميزة . « كنا في باص العمال وفجأة خرج من قلب المكان اخطبوط » .

وأكمل الأب : « واخذ الاخطبوط يسد علينا كل المنافذ ، الا ان احداً لم يصرخ » . لم تستطع الأم ان تستمع حتى النهاية . واستدارت مذعورة ،وقفزت فوق العتبة . لم يستغرب الأب حركتها . كان يعرف ان حلمه شديد الغرابة . اما هي فكانت تفكر بأنّ الأب لا يغفو اثناء القيلولة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢ - القصة

كنت أريد ان أقول : « ان اختكم قد نمت في الحديقة » . الا ان الفتاة الكبرى ، أكملت دون ان تمهلني (كان الجميع على مائدة العشاء)

– لاحقتها. كانت ملونة وكنت اريدها ، ولكنها ظلت تهرب.

التمعت عينا الصغير . وأكملت الفتاة .

« عدت الى الحديقة ، وكانت قد ابتعدت » .

سأل الصبي : « هل هي فراشة ؟»

قالت الفتاة : ليست فراشة انها « بشورة ».

قال الصبي : « ما هي البشورة ؟ »

أجابت :

– انها فراشة تحمل بشارة . حوّمت فوق رأسي طويلاً وكنت سعيدة ، فقد كانت تحمل لي بشارة .

التمعت عينا الصغير ثانية وقال :

– ولكنها فراشة .

اضطربت الفتاة ، وحدقت فيه برهة . كانت تريد ان تقول له شيئاً بشكل خاص ، الا انها عدلت ، واستدارت نحونا .

— « ثم غابت ، وكنت اريدها . فتركت كل شيء. واخذت انتظرعودتها» ضحك الصبي ، وقال : « تنتظرين فراشة » .

وكنت اريد ان اقول له في هذه اللحظـة بالذات ،« ان اختك قد نمّت في الحديقة وليس في البيت » . ثم فكرت . « انه لن يفهم » فعدلت . وكان قـد اخذ ينشغل بصحنه . وتجاهلت الفتاة اشارته . الا ان كآبة اخذت تتفلش فوق ملامحها وتتسرب الى عينيها وتغيض فيها . اطرقت ، ثم رفعت رأسها .

— بعد قليل رأيت قطة تركض فوق سور الحديقة .

رفع الطفل رأسه ، واخذ ينصت ، وبدا شديد الاهتمام . وبدت الفتاة في غاية الاكتئاب . واكملت .

— وعندما نظرت الى رأس القطة (قالت الفتـاة بصوت مرتجف) كانت الفراشة تتخبّط بين اسنانها . سكتتْ ونظرتْ اليّ طويلا . وكان عـليّ ان اقول شيئاً . الا انني قلت :

— يا لها من قصة .

لم تستسغ اشارتي . رنت اليّ مدة طويلة . وعجزت عن معرفـة ما تفكر فيه ثم اخذت اجفانها تسترخي .وقالت :

— هي قصة اذن (فترة صمت طويلة) لم يسبق لي ان كتبت قصة ، ولكني سأكتب هذه كما حدثت ، وأحتفظ بها لنفسي .

وبدا ظل شفيف من الارتياح يكسو وجهها ، لولا ان الصبي الصغير قهقـه بصخب — ولم تكن فكرة الكتابة قد راقته اذ قال :

— تشترين دفتراً ، لتكتبي فيه ، ان القطة اكلت الفراشة .كل يوم تأكل الف قطة الف فراشة .. انني اراها — وكاد يقسم —

لم يقل احدنا شيئاً ، اذ ان موجة من الاكتئاب — لم ندر اذا كانت قد نبعت من عيني الفتاة ، ام من داخلنا — اغرقتنا جميعاً . ولم تستمر ضحكة الصـبي طويلاً وظل بعدها مـدة طويلة لا يضحك .

٣ - الغيمة

ك. د.

قلت له : « انظر كم هي جميلة » . قبل ان يرفع وجهه أكملت « اعني انتشار الاشعة عليها » .

ظل برهة رافعاً وجهه الى السماء دون ان يتوقف عن المسير ، ثم قـال : « انني اغبطك » . انتظرت ، فاكمل . « لانك رأيتها قبلي »قلت :

– الغيوم لا يستطيع أحد ان يمتلكها .

قـال :

– بلى ، كل الاشياء الجميلة يمتلكها من يراها أولا .

اقترب منها . اشار الى الغيمة الا انها لم تنظر اليها . رنت الى وجهه طويلا، ولم تقل شيئاً . بعد قليل شاهدت القمر يبزغ . انتظرت ان يقول احدهمـا شيئاً . ثم تذكرت انه روى لي : كيف كان يلعب مع الاطفال في ضوء القمـر حتى يغيب في الافق الغربي من المدينة . وفي احدى الليالي فوجئوا بان جـداراً عالياً أقيم في وسط المدينة . لعبوا عند الجدار فترة قصيرة ، وعندما أخـذ القمر ينزلق الى الجهة الغربية كان الجدار يحجبه عنهم. وكان هو والاطفال بحاجة الى القمر ولذا تفرقوا ، ولم يعد يراهم بعد ذلك . اما هو فلم يكن يصدق قبـل ذلك ان جداراً ما يمكن ان يحجب القمر . وبدا له العالم في تلك اللحظـة التي كان القمر يمر فيها فوق الجدار ، شديد التناقض والغرابة . فانسحب الى الداخل، وبقي هناك .

عبر القمر ، ولم يرياه ، كانا لم يتكلما ، وكانت يده على كتفها . قال قبـل ايام : « انها معي الآن . وانني لا اخرج الا اليها » . ابتسمت . وكنا ننحدر في طريق ضيق على جبل الزيتون . فاكمل :

– « اما هذه المدينة فانها تسكنني في الداخل » .

عرجنا على كنيسة صغيرة ، لم يكن بها احد . وقفنا في الداخل ، قـال بصوت هامس (كان يخشى أن يسمع صدى الاشياء) :

« انظر مشهد المدينة الفريد من هنا » . كنا نقف وراء نافذة صغيرة ، ذات زجاج بنفسجي . تساءلت هي : لماذا يستعملون الزجاج البنفسجي في الكنائس هنا ؟ لم يجب احد . قلت له بعد قليل : « لاحظت ان لوحاتك تـكاد تخـلو من اللون البنفسجي » قال متسرعاً : « الألوان الحزينة احتفـظ بها لنفسي » . وأكمل بعد برهة : « لم ارسم لوحتي بعد » .

خرجنا ، ونزلنا ومررنا بكنيسة اخرى عند سفح الجبل . حيـاه البعض من الداخل فاقترب من البوابة وقطف زهرة ، اعطاها لها . بعد قليل اقترب منهـا وامسك بيدها وبالزهرة معاً ومشيا . ومشيت . سألني عند السور ، هل تعلم في

اي عام بني هذا السور ؟ هززت رأسي ، كدت بعدها اقول شيئاً ، الا انه أكمل :

« هل تدري ان للمدينة رائحة خاصة » . التصقت بـه ، وانكمشت تحت جناحه . نظرت اليها . قال : « بخصوصية رائحة الام بالذات . للمدينة وللأم رائحة واحدة » . ومشينا . وفي اليوم التالي رحلت وحدي .

*

وصلا معاً . دخلا ، ولم نتبادل تحية . كما اننا لم نتبادل كلاماً كثيراً . ولم أطرح عليهما اية اسئلة طيلة الايام التالية . كان العالم قد بدا من الهشاشة بحيث لا يحتمل علامة استفهام اخرى .

هذا الصباح تذكرت ان اليوم هو اليوم الذي التقيا فيه . كانا يذكران اليوم . الا انهما لم يشيرا اليه بشيء . فاحضرت الزجاجة . وضعتها بينهما ، واعتذرت بأن لدي عملاً في الغرفة الأخرى . احسست بالرضى . واخذت الدماء تملأ عروقي . ولم تكن دمائي انا . فقد احسست ان هذا العالم قد يستعيد ليونته . وكنت سعيداً . لم اسمع صوتاً . ثم سمعت تحطم الزجاجة . ولم اسمع صوتاً بعده . ركضت . وقفت على العتبة . كانت هي تجلس بعيداً عند الزاوية بشكل موارب . غضبى ، ولكنها حزينة . ولم يكن هو يتحرك . كما لو كان مشدوداً بين قطبي العالم بشكل شديد التوتر ، فخشيت ان اقول شيئاً .

كانت الزجاجة محطمة على الأرض بينهما تماماً . نظرت اليها طويلاً . لم يكن احد قد اراد كسرها . كما لو كانت قد سقطت هي بارادتها الخاصة . رفعت عيني اليه . كان فاقداً الرغبة في الكلام . وعندما كدت انقل بصري اليها هز رأسه طويلاً ثم قال :

– ولكننا الآن في عمان ، ولسنا في القدس .

فهمت . يا إلهي ، كنت اخشى ان يفرز الزمن هذه اللحظة الكاوية شديدة الكثافة على هذا الشكل ، اذ كنت اعرف اي سطح ملتهب ستسقط عليه .

لم أستطع أن أقول شيئاً فخرجت .

بول غيراغوسيان

لحظة القدرة على كل شيء ...

سمير الصايغ بريشة غيراغوسيان

بول غيراغوسيان بريشته

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

* لنرجع الى الماضي ، الى الطفولة ، يقال عنك انك من اصل اشوري او سرياني فهل هذا صحيح ؟

غيراغوسيان ـ هذا غير مهم اطلاقاً . شخصياً لا أهتم بهذه المواضيع . المهم بالنسبة الي هو الانسان ، والانسان انسان في اي بقعة وجد وهو واحد في كل مكان . واذا كان أصل الانسان الانسان هو الذي يعطيه قيمته في الوجود فهذه القيمة فارغة وتافهة ومرفوضة اصلاً لانها خاضعة للصدفة وخارجة عن كل شيء اسمه منطق وعقل وعدالة . كنت اتساءل دائماً عن الشيء الذي يفصل الانسان عن الانسان . أخيراً عرفت انه ليس الأصل ، وليس الارض والحدود ، ولا اللغة او الدين او السياسة ، بل فراغ الانسان وانغلاقه وتجمده . الانسان الفارغ التافه الضعيف يلتجىء وراء الحدود والفواصل ليستر ضعفه .

اشوري ، سرياني ، ارمني ، لبناني ، هذه اسماء تبقى بالنسبة إلي اسماء .

الله في كل انسان

* كانت طفولتك في الدير ، أليس كذلك ؟ اي دير ؟ وكم كان عمرك عندما دخلته ؟

غيراغوسيان – كنت في دير لراهبات المحبة في القدس . كان عمري عندما دخلته ثلاث سنوات وبقيت فيه حتى السابعة ، ثم انتقلت الى دير آخر للفرنسيسكان وبقيت فيه حتى الثالثة عشرة .

* اذن كانت طفولتك طفولة دينية ؟

غيراغوسيان – كلها . ولها علاقة بالصوفية ، لقد كنت مؤمناً وما أزال .

* ألم يكن للدير اي تأثير عليك ، هل اكتشفت ذلك فيما بعد ؟

غيراغوسيان – الاثر في لوحاتي ، ولا مهرب لي من ذلك. لقد تشربت في الطفولة : الصوفية، الحب ، اللون الديني ، رهبة الله .

* والجنس ؟ أليس للدير تأثير عليك من هذه الناحية ؟

غيراغوسيان – لم اكن افهم شيئاً عن الجنس وعندما خرجت من الدير بدا لي العالم غريباً ، واحسست انني كنت اعيش في عالم آخر . كان العالم يتخبط ، ثم ركزت قوتي كلها لانتقل من الجو الديني الصرف الذي كنت اعيش فيه الى عالم الانسان ، وعرفت ان العالم يعيش كذلك في دير كبير ، والانسان في اي مكان داخل الدير او خارجه يفتش دائماً عن الطريق .

أما المرأة فكانت في مخيلتي صورة العذراء . كانت المرأة بالنسبة الي ، الطهارة كلها والمحبة كلها . وخارج الدير ، كنت ارى كل امرأة عذراء وكل رجل مسيحاً . وكان الله في كل انسان .

* هل ما زلت تؤمن بالتعاليم الدينية التي تعلمتها في الدير ام انك رفضتها فيما بعد ؟

غيراغوسيان – التعاليم صحيحة مئة بالمئة (طبعاً ليست التعاليم التي تبسط الأشياء وتفسرها) ان كنت ارفض الآن بعضها فاني اوجهها نحو الصوفية ، اني اهتم بالرموز الدينية .

* تقصد بذلك انك وسعت مفاهيمك الاولى للدين ؟

غيراغوسيان – طبعاً .

* الم تصطدم مع رجال الدين أنفسهم ؟

غيراغوسيان – لا علاقة لرجال الدين في الموضوع ، لانهم مثلنا يصارعون الحياة. والدين غير رجال الدين . انا اعذرهم . انهم يتعبون وحياتهم صعبة . انهم يعيشون في عالم صعب .

* الم يكن النظام في الدير قاسياً ، ما تأثير ذلك بالنسبة اليك ؟

غيراغوسيان – النظام القاسي هو الذي أفادني . كان حبساً روحياً وكل حبس روحي حرية . وكل دلع وانفلاش سجن . وهذا ينطبق على الفن . الفنان الذي يدرس ويجهد نفسه ويعمل بنظام مرهق وقاس ينطلق نحو الحرية ، اما الذي يجرد الأشياء متخذاً الطريق السهل فيضيع الى الأبد .

* ولماذا تركت الدير ؟

غيراغوسيان – قال لي ابي : « انا احب ان يكون ابني كذا وكذا ... ولا احب ان يبقى في الدير ... » هو أخذني .

* هل رافقت أباك ؟ هل ساعدته في عمله ؟

غيراغوسيان ـ كان والدي أعمى ، لكن ليس من الولادة ، كان في الجيش وحارب ، وفي أثناء الحرب اصيب في كتفه مما ادى الى فقدان بصره .

وكان ابي يعزف على الكمان و« الفيولونسيل » . ورث هذا عن اجدادي . كانوا يحبون الموسيقى كثيراً ، لم اكن مثلهم لذلك لم اساعده في عمله .

لكنه مات ، وكان عمري خمس عشرة سنة . ترك لي الكمان .

* بعد الخامسة عشرة اتيت الى لبنان ؟

غيراغوسيان ـ نعم .

* هل عشت في طفولتك حياة فقيرة ؟

غيراغوسيان ـ بعد موت والدي . لكني لا اعترف بالفقر . ليس هناك شيء اسمه فقر مادي . لقد كنت سعيداً ، متسامحاً ، أنظر الى العالم ببراءة وطفولة ولم اكن احس انني فقير . وكنت اسكن في بيت متواضع جداً . ليس بيتاً على الاصح ، لكن الطبيعة حوله كانت جميلة جداً ولم اكن اتعذب من ذلك .

ما يحدث في هيكل الانسان الداخلي هو المهم . الاشياء الاخرى ثانوية .

المرأة ، الزواج ، الحب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* لنقفز الى الأمام قليلاً ، كيف تعرفت على زوجتك ؟

غيراغوسيان ـ في سن الحادية والعشرين ارادت امي ان اتزوج ، وحتى ذلك الوقت لم اكن أفكر في الزواج . كنت فيما يتعلق بالمرأة خجولاً جداً وكنت اعتقد انه من المستحيل ان تفكر بي امرأة ما ، وكنت اخاف ان اجتمع بامرأة او اتحدث معها خوفاً من ان تهينني برفضها محادثتي ، او تعترض على شكلي او تهزأ من حاجبي . وكنت اعرف انه من المستحيل ان تفكر امرأة جدياً برسام . الرسام انسان بائس ، فقير . والرسم لا يأتي بالخبز . هكذا كانوا يقولون لي .

كنت اريد للمرأة التي افكر فيها أن تكون رسامة ، ولو كانت لا تعرف ان ترسم .واحياناً كنت افكر بامرأة ينقصها شيء : رجْل مثلاً ، ذراع ، عين . والواقع انني أخذت افتش عن هذه المرأة .

وكنت اعتقد ان التعرف الى امرأة شيء مهم ومهم جداً ، لاني كنت اعتقد ان المرأة للزواج وحسب ، واتعجب كيف تخرج المرأة مع رجل غير زوجها .

مرة حدثتني جارة عن فتاة ترسم بجوارنا وطلبت مني ان ازورها واتعرف اليها . ذهبت . كانت اول امرأة اتحدث معها طويلاً ، وهي الآن زوجتي .

* هل تحبها ؟

غيراغوسيان ـ احبها لانها صديقتي ، ترسم معي تفهمني وتساعدني . وفيما بعد سافرت الى الخارج وتغيرت نظرتي الى نفسي وأدركت انني لست بشعاً الى حد كبير وان من الممكن ان تفكر النساء بي ، وتعرفت الى الكثير منهن لكني لم أر ان المرأة التي تعرفت اليها اولاً كانت اقل قيمة او شأناً من غيرها . وشعرت تجاهها انني كالذي يضع على عينيه حجاباً ويقفز لكنه يقع في المكان المناسب .

* وهل انت مخلص لها ؟

غيراغوسيان ـ هذا سؤال حرج وخاص كثيراً . الحيـاة معركة ضد التجربة . معركة كبيرة . المهم ان يسعى الانسان ليبقى مخلصاً . إنني مهتم بأن أبقى مخلصاً لزوجتي ، لشعبي ، لوطني ، لفني .

* سؤال اخير عن الطفولة . اي ذكرى تحملها معك ، من هذا العالم الطري ؟

غيراغوسيان ـ لست اتذكر .. مهلاً .. بلى . في السابعة من عمري وخـلال الدرس كنت اصور بدل ان انتبه الى الشرح... رآني الناظر وطلب مني ان آخذ اوراقي واذهب الى الرئيس. الرئيس يعني انني مذنب ،ومذنب كبير . ذهبت وكنت خائفاً كثيراً اهيىء نفسي لقصـاص صارم . وقفت امام الرئيس وقدمت له الرسوم وقلت له كنت اصور خلال الصف . نظر الى الرسوم ثم الي ، (وبالطبع كنت ارتجف من الخوف) قال لي : انت رسام يا ولد ..

ذكرى ثانية . دخلت الى معرض لامرأة المانية ، تأملت اللوحات وتطلعت الى امرأة في الصالة وقلت لها : انني استطيع ان ارسم افضل من هذه الرسامة . وكانت المرأة التي اتحدث اليها الرسامة نفسها . عرفتني بنفسها وسألتني ان كنت ارسم .قلت لها نعم .قالت لي ماذا ترسم قلت لها ارسم .قالت مثلي. قلت نعم . ورغبت ان اطلعها على رسومي . فوعدتها للغد .. ذهبت رأساً الى البيت ورسمت لها ثلاث لوحات وفي صباح اليوم الثاني عدت اليها وقدمت لها اللوحات. اعجبت بها ، وشجعتني . لقد فهمتني وعذرت ادعائي .

الناس يوما يوما

* انت تسكن الآن برج حمود . لماذا برج حمود ؟

غيراغوسيان ـ كان برج حمود (عندما كنت متأثراً « بفان كوخ » وعندما كنت انتمي الى المدرسة الانطباعية) عدسة ارى من خلالها الناس كيف يبكون ،كيف يتعذبون ،كيف يجوعون ويشقون ويموتون . وصرت ادافع عن الانسان مستعيناً بالطبيعة وبالانسان نفسه ، ورسمت الحي والناس . رسمت ايامي يوماً يوماً .

ثم لاحظ الفنانون اللبنانيون انني شديد التعاسة في لوحاتي ولست اهتم للجمال . والحقيقة لم اكن اهتم كثيراً بالاشياء البلاستيكية في اللوحة ، وكان ردي : لا يمكن ان تكون اللوحـة بلاستيكية الا اذا كان التعبير عن النفس قوياً ، عندها تقوى كل الاشياء في اللوحة . اخـيراً جئت بالبلاستيك واستعملته كرداء شفاف للحزن واصبحت اللوحة عندي نصفها مر ونصفهـا حلو ، وسعيت لأن ادمج الأطراف في اللوحة الواحدة : الحزن الشديد والفرح الشديـد . ونجحت في ذلك الى حد ما . وهذا عائد الى الفنانين اللبنانيين . لكنني مع ذلك مؤمن ان شفافية اللون ليست الاساس . اساس اللوحة هو الانسان . الانسان وحياته وصراعه . اللوحة ليست منفصلة عن الانسان . بعض الفنانين يهتمون كثيراً بجمال الألوان . انا لا استطيع ان اترك الانسان جانباً . اللوحة بلا انسان فارغة . وهذا ما افدته من برج حمود .

* لكنك تقضي معظم الأوقات في « الهورس شو ».

غيراسوسيان ـ « الهورس شو » مدرسة كمدرسة برج حمود . مدرسة برج حمود تطلعك على الحياة . كذلك « الهورس شو » . في «الهورس شو» نشاط ثقـافي . التقي مع الادباء والشعراء والفنانين ونتحدث عن الفن والاحداث الجديدة في العالم . نتحدث عن السياسة وعن مصيرنا ، ثم آخذ ما اريده وانسى الباقي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* هل تقرأ الشعر ؟

غيراغوسيان ـ الشعر العربي والفرنسي والانكليزي .

* هل تحب الشعر ؟

غيراغوسيان ـ انت تسألني ان كنت احب الفن ؟

* مثلاً .

غيراغوسيان ـ انا غريب من هذه الناحية . احياناً اقرأ لشاعر مشهور ولا احبه واحياناً اقرأ لشاعر غير معروف واعجب به كثيراً . واحياناً اقرأ ولا افهم . اتريد مثلاً على ذلك؟قرأت « لرامبو » قصيدة المركب السكران .قيل لي عنها انها من اجمل شعره . لم تعجبني .وقرأت له بعض القصائد الصغيرة تتحدث عن الكرسي او الجندي المجروح وسكرت بها حتى الغيبوبة .

* ومن الشعراء العرب ؟

غيراغوسيان ـ اقرأ المتنبي . اجد عنده القوة والعظمة . قرأت لشوقي . اعجبت ببعض القصائد مع انهم قالوا لي انه ليس بشاعر عظيم . قرأت لخليل مطران قصيدة المساء . ترجمتها لزوجتي وتأثرنا بها معاً .

* ومن الشعراء المعاصرين ؟

غيراغوسيان ـ اقرأ لأدونيس . ادونيس عنيف ، مأساوي وقوي جداً . اقرأ لانسي الحاج. كتابه الاخير « ماضي الايام الآتية » اعجبني . هناك شاعر عامي احبه ايضاً . لا اود ان اذكر اسماء . هناك شعراء ممتازون .

* اتقرأ روايات ؟ لمن ؟

غيراغوسيان ـ دوستويفسكي ، بلزاك ، فيكتور هوغو . وفي العربية قرأت للطيب صالح .

* اتذهب الى السينما ؟

غيراغوسيان ـ لا اهتم كثيراً بالسينما .

* والبحر ؟

غيراغوسيان ـ قليلا .

★ ما دمنا نتحدث عن الفنون ، فلماذا تحب الموسيقى الهندية ؟

غيراغوسيان ـ لا اعرف ... من الممكن انني انحدر من اصل هندي . احس ان هذه الموسيقى تخصني . انها تأخذني الى انسان ما قبل التاريخ .

غريب هذا الكون لماذا تفرق؟لماذا تشتت ؟ لماذا الحدود ؟ لماذا الأديان الكثيرة ؟ والاحزاب الكثيرة ؟ اني اتألم كثيراً لهذا الأشياء .

رسام المدرسة

★ الى اي عهد يعود تاريخك الفني ؟ منذ متى وانت ترسم ؟

غيراغوسيان ـ كيف اعلم ذلك ؟ لا اعرف . الشيء الوحيد الذي اعرفه هو انني سائر . لكن على وجه التقريب اقول انني منذ الصغر وانا ارسم في المدرسة . كنت ارسم فروض التلامذة وكانوا يطلقون علي اسم رسام المدرسة . ومنذ ذلك الوقت حتى التاسعة عشرة من عمري كنت واثقاً من نفسي ولم اكن اشعر بصعوبة اطلاقاً . اخيراً عرفت ان عالم الرسم عالم واسع وصعب. وبدأت اصغر واحس انني لا شيء . وبدا لي الفن موجة مخيفة تتدحرج منذ الأزل . صرت اسمع صوتها . كان مدوياً . خفت . مع ذلك قررت ان اصمد وبدأت ادرس الفن والفنانين. « رامبرنت » « دي فنتشي » « ميكال انج » .ودخلت في عبادة الفن .

★ الم تتعلم الفن في المدرسة ؟

غيراغوسيان ـ بلى . في المدرسة الايطالية في القدس . كان في الدير مرمم . وعلمني « مانيتي » الفنان الايطالي الذي عاش في لبنان . وفنان آخر اسمه « بتروباكيتي » . هما علماني رسم الايقونات وصور العذراء والقديسين وهما اللذان شرحا لي انني لا استطيع ان اتعلم الفن دون ان اعرف تشريح جسم الانسان . اخذت هذه المعلومات جدياً . رحت ادرس التشريح . كنت احمل الكتب وادرسها في المقاهي على الطرقات وفي السرفيس . احببت التشريح كثيراً . اعتقدت أنه الطريق الوحيدة التي ستوصلني الى الفن . وكان اعتقادي ثابتاً في ذلك ، بعدها عرفت ان بعد التشريح عوالم عديدة . هناك عالم اللون ، عالم التأليف ، عالم الفكر ، وعوالم كثيرة تدخل في اللوحة ، بدأت ادرك ان المهم في الحضارات الفنية شرقية كانت ام غربية ليس الصنعة بل الفنان الجيـد الذي يصهر كل المدارس ليصنع منها اعجوبة . وهذه الاعجوبة هي الفن ، الاعجوبة التي لا يستطيع اي ناقد ان يفسرها ، حتى الفنان نفسه لا يعرف كيف تمت . انها تأتي هكـذا ، انها هدية .

★ ماذا كان سيحدث لك ، كما تظن ، لو انك لم تدرس الفن وتتعرف على رسوم العالم ؟

غيراغوسيان ـ كنت اصبحت فناناً فطرياً ، او بدائياً . اتمنى احياناً ان اكون هكـذا واحياناً اخرى اشكر الظروف التي جعلتني ادرس واطالع .

الابداع ، الموت

★ خلال هذه المدة الم تيأس من الرسم ؟

غيراغوسيان ـ اليأس موجود دائماً . الفنان يشك في نفسه دائماً .انه القلق . قلق الخلق،

قلق الابداع . وفي القلق خوف ورهبة . انه الموت مراراً .

المسافة بين اللوحة والفنان مسافة صعبة الاجتياز ، غامضة ، احياناً تكون طويلة يتعب فيها الفنان وييأس من الوصول . يقفز اليه من جنباتها الشك والخوف . تغريه العودة . احياناً يسطع امامه نور غريب . يرى نفسه قد وصل .

بالنسبة الي دائماً اقول : اود ان أبدأ ، يجب ان أبدأ .. سأبدأ الآن .. لكن الزمن هذا الفرس الذي لا يقف ولا يتعب ، دائماً يفزعني واخاف ان يغيب عن ناظري . انتفض لأبدأ من جديد .

احياناً اظن انني خدعة كبيرة ، ان الفن خدعة كذلك،ان العالم كله خدعة . اخاف ، ارتجف ، لكني دائماً أرتمي بين احضان الطبيعة ، اتكش بها . انها خشبة الخلاص .

★ هل صحيح انك تأثرت «بفان كوخ» ؟

غيراغوسيان ـ قبل فان كوخ تأثرت «بالنهضة».كنت ارى في النهضة كل شيء . انها الاساس والمنطلق . ولم اكن اؤمن بالعالم المعاصر . كنت ارفضه حتى العشرين من عمري .

مرة قدم لي بائع ادوات الرسم الذي اشتري من عنده حاجاتي ، كتاباً ونصحني بأن اقرأه . كان الكتاب عن «فان كوخ» . تصفحته قليلاً واطلعت على الرسوم فيه . وحاولت ان ارجعه له . سألني لماذا فاجبت ان هذا الرسام لا يعرف ان يرسم . لماذا كل شيء عنده اعوج . هذا مزعج . لكن صاحب المحل ألح علي ان اقرأ الكتاب .

بدأت اقرأه ، كان مذهلاً ... اعدت قراءته مرة ثانية ، كنت اقرأ حياة «فان كوخ» رسائله ،افكاره ،صلواته . بدأت أفهم لوحاته ، بدأت أراها .

لبسْت فان كوخ ، ولد فيّ من جديد . في الطريق كنت فان كوخ.في المرسم كنتفان كوخ. ارسم الشيء الذي كان سيرسمه لو كان هنا . اضرب الفرشاة كما كان يضربها . وعندما كانوا يرون لوحاتي كانوا يقولون لي : انني متأثر كثيراً بفان كوخ .

http://Archive.Sakhrit.com

ثم التقيت بصديق آخر ، سألني ان كنت اعرف شيئاً عن الحضارة المصرية . وحدثني كيف أن «غوغان» كان يأخذ عن الحضارة المصرية . ذهبت واطلعت على الفن المصري وقارنت اعمال غوغان به ، واعدت النظر في المذاهب والمدارس والحضارات الغربية والشرقية واليونانية والفارسية . ثم بدأت شيئاً فشيئاً اترك فان كوخ والنهضة وجميع المدارس ، واتجه نحو الشرق . لقد بدأت اتجه نحو نفسي .

أخيراً علمت ان الفن واحد ، عالم واحد ، موجة واحدة ، ما تزال تتدفق . تنبع في الداخل لتتدفق في الداخل وتتكسر في الداخل . ومع هذا التدفق يصبح الانسان نظيفاً حتى الشفافية .

الحاضر والماضي في لبنان

★ لننتقل الى قضايا الفن في لبنان . تقول في حديث لك في الماضي ، « ان الفن في لبنان فردي ، وعندما يصير جماعياً ، فهناك أمل في أن يجد نفسه . اليس الفن في نظرك ، اعني الفن الاصيل فردياً بالضرورة ؟ »

غيراغوسيان ـ نعم فردي بالداخل وجماعي بالخارج . بمعنى آخر الفردية في الفن تأتي في الاحساس الاخير.اما تقنية الفن ، صنعته فجماعيتان . في جميع الحضارات الفنية ، كانت الصنعة شيئاً والاحساس شيئاً آخر .عند الفراعنة،عند الفرس ، عند الاسبان ، عند الهولنديين

في النهضة ، كان لكل فنان احساسه الخاص ، لكن التقنيّة كانت واحدة عند الجميع .

هذا لا يعني ان نفتش عن تقنية. انما وجود الفنانين في مناخ خاص ، وتلاقيهم أمام مشكلات وحواجز واحدة يفرضان عليهم تقنية موحدة . طبيعة الارض، حساسيتها ، حرارة الشمس ، حركة الفصول تفرض نوعاً واحداً من الشجر . الشكل يأتي مع المضمون . كذلك في الفن . عندها يصير الفن غابة موحدة الاشجار . كل شجرة تجهد في ان تزيد عمقها في الارض لتعطي ثماراً جيدة . وبدلاً من ان تتلهى العيون بشكل الاشجار وأنواعها تنتقل الى الثمار نفسها . أليست الثمرة هي الاكثر اهمية ؟ بمعنى آخر يصير همّ الفنان ، فردية العطاء وفردية الجودة وفردية العمق .

من غير الممكن ان يخلق كل فنان مدرسة خاصة به . هذا غير معقول ... الفن صنعة واحدة ، لغة واحدة ، لكنه في الداخل عالم خاص .

* لذلك دعوت الفنانين العرب أن يعودوا الى اصلهم ، وأن يقيموا صنعة ، مهنة من الالف الى الياء ؟ ما هو هذا الاصل ؟ كيف تنظر الى الماضي الفني العربي ؟

غيراغوسيان - أنظر الى الماضي من الناحية المدرسية . أنظر الى الشكل واعني بذلك الهندسة العربية ، الجوامع والقصور في الاندلس في طولون ، في الهند . انظر الى فسيفساء الجدران ، الى زخرفة الخشب ، الى الآنية الزجاجية . هذا كله كان الاطار العام للفن العربي وكان لكل فنان أو مهندس يعمل ضمن هذا الاطار بألوانه الخاصة وذوقه الخاص ونسبه الخاصة. وهنا نعود الى الفردية والجماعية وآخذ مثالاً على ذلك كتاب «الحريري» الذي هو مدرسة واحدة من حيث الشكل ، انما لكل فنان فيه جوه الخاص وافكاره الخاصة . الفن يتنوع بالذوق وليس بالمدرسة، بالعمق وليس بالسطح . بمعنى آخر كان التواضع يجمع بين الفنانين . كانوا جماعة يعملون لاهداف معينة تتناول الشعب والدين والفكر . تتناول الانسان .

الفردية هنا انصهرت في الجماعة ، اذ ليس معنى الفردية ان ارسم على الطريقة الاميركية أو الاسترالية أو هذه أو تلك . وهذا ما يحدث في لبنان وفي كل عواصم العالم كباريس ولندن . وهذه الظواهر ان دلت على شيء فانها تدل على انحطاط فني في هذا القرن .

للفن في كل زمان ومكان هدف صوفي ، ديني ، اجتماعي انساني . انه يتطلع الى المستقبل ، ويسعى لأن يغير ، والتغير يتم بالجماعة . الفردية هنا هي التي تجعل الجماعة تكبر وتعطيها القوة لتكون قادرة على ذلك .

* لكن كيف يستطيع الفنان اللبناني أن يستفيد من الماضي ويطوره ؟ كيف يعطيه دفقاً جديداً ليجعله حاضراً ؟

غيراغوسيان - الاستفادة هي كما قلت اللغة الواحدة ، والتطور بأن يخلق شيئاً جديداً .

هذه ليست دعوة لان نرسم المواضيع ذاتها : السيف والحصان والفارس ، قيس وليلى ، عنتر وعبلة ، وان نرسمها بطرق جديدة . ليس هناك طرق جديدة لرسمها . هذا نقل وليس تجديداً . التجديد ان نرسم بإيمان قوي تطلعنا الى انفسنا والعالم الذي نعيش فيه ، رؤيتنا لعالمنا لماضينا وحاضرنا ومستقبلنا . بهذا نستطيع ان نخلق فناً عظيماً يشبهنا . يكون لغتنا وصنعتنا، ويكون طريقنا الى جميع الجهات .

التراث ، الثورة

* لكن أكثر الفنانين اللبنانيين يجمعون ان الفن في لبنان ما يزال في طور بدائي جـداً ، واننا (اي الفنانون) ما نزال مبتدئين ، وفناننا لم يعط حتى الآن كل ما في وسعه ان يعطيه . وفنانونا بالرغم من مظاهر التجديد عاقلون جداً .. الى آخره ، فما هو موقفك أنت ؟

غيراغوسيان ـ هذا الكلام كله سخيف .

الفنان الاصيل لا يدين لزمان ولا لمكان . انه ازلي ، وهو لا قديم ولا حديث . انه فنان لانه ولد فناناً وهذا ليس بيده . الشاعر شاعر قبل ان يتعلم اللغة قبل ان يكتب اي قصيدة . وهو ، ان اقتضى الامر ، يخلق لغة خاصة به . أقصد بذلك لا علاقة للفشل أو النجـاح في موضوع الشاعرية أو الموهبة . الفشل والنجاح ليسا المقياس. المهم هو الايمان والحركة الداخلية ، العنف الذي يدفع الفنان للخلق ، ليرتمي في بركان الحياة ويطفىء اللهب المشتعل فيه . ولا اهمية هنا للصنعة أو جمال اللوحة او تاريخ الفن وتطوره . في العصر الحجري رسموا على الجدران . رسموا بلون واحد ، الاسود او الاحمر ، رسموا بعنف وايمان ، صراعهم مع الحيوان . رسموا الجوع ، جوعهم للحياة والاستمرار . هل كانوا مبتدئين ؟ هل كانوا في طور بدائي ؟ كان فنهم نافذة تطل على الحياة . كان حياتهم بالذات . هذا هو المهم . الحياة الموجودة في اللوحـة لا تاريخ اللوحة .

ونرجـع هنا الى اغنية التراث .. لا تراث عندنا . اتساءل ما معنى هذه الاغنية .. الفنان الاصيل يبدع من أول يوم من أول لحظة . ان كنت مؤمناً بالفن ، ان كنت مؤمناً بأنه اعجوبة، تستطيـع ان تتصور ان الفنان يبدع وهو جنين .

الفن اعجوبة ، هذا صحيح . انه كل الماضي والحاضر والمستقبل . وعندما يولد فنان فمعنى ذلك أن نجمة ولدت ، وقد يستمر نور هذه النجمة الزمان كله ليصل الى الآخرين ، وقـد لا يصل احياناً .

* هذه روح ثورية . اذن كيف يثور الفنان ؟ ما هي ثورته وكيف تكون ثورته فعالةمثمرة في أيامنا الحاضرة ؟

غيراغوسيان ـ الفنان ثائر دائماً ، لان الخلق ثورة والابداع ثورة . دون الخلق والابداع ، اي دون الفن يرتمي العالم في الرتابة ، يغرق في التقليد ، يجمد أخيراً ويموت . يأتي الفن لينقـذ العالم من الجمود . اذن هو ثورة . بهذا يكون الفنان ثائراً على الطبيعة ، على المجتمع ، على الانسان الذي يقف ليبدأ بالموت . انه في ثورة دائمة لانه نبض الحياة الخافق في جسد الكون .

وثورة الفنان هي وجوده بالذات . اذ لا يستطيـع الفنان ان يكون ثورياً بالفكر . لا يقدر أن يقرر ان يكون ثورياً بقوله أريد أن أكون ، أود ان أكون ، أنا ثائر .. تكون ثورتـه عندما يرجـع الى نفسه ويتحد بها ، وعندما يكون مبدعاً خلاقاً ، وتبدأ ثورته عندما يعمل .

طريق الثورة عند الفنان هي اللوحة . قد يرسم زهرة وتكون هذه الزهرة انقلاباً في عالم الفن . يحس المتأمل فيها بعنف الثورة وليونتها في آن .اذ ليس ضرورياً ليكون الفنان ثورياً ان يرسم الحرب والدماء والرصاص . الثورة ليست الحروب وليست الرصاص . قد يرسم حيواناً ، شجرة ، طفلاً ، مثلاً ، وقد يختصر في هذه المواضيـع حروب العالم كلها . قد يقيم الحروب بين الالوان او الاشكال . المهم في ثورة الفنان هو تغيير المفاهيم والقيم ، اعطاؤها معنى آخر ، عمقاً جديداً ، لوناً أكثر شفافية . المهم ان يعمل لان ثورته هي في الداخل .

ثورة الفنان تبدأ بالداخل اولاً لتصبح الفنان ثانياً ، حياته ، افكاره ، أحاسيسه ، رؤيته

للانسان والمستقبل. ثم تأتي اللوحة لتكون الافق الذي تنفجر فيه لتصل الى الآخرين .

اتحدث هنا بشكل عام ، معتبراً الفنان ثائراً على الطبيعة بحد ذاتها . اما اذا كانت السياسة والمجتمع والانسان دون المستوى، فان ثورة الفنان تزداد حدة . وقد تتجه في طريق تلبس فيه ثوب العنف . عندها تصير المأساة الوجه الآخر لهذه الثورة .

* قلت مرة : « الفن يوجه السياسة . انه من الضروريات الاولية . البلد الذي ليس فيه فن ليس فيه سياسة صحيحة » . كيف يمكن ان يوجه الفن العربي السياسة العربية ؟

غيراغوسيان ـ انه توجيه روحي ذوقي جمالي ، وليس اقتصادياً وقانونياً ونظامياً . انه يهب لراحة للنفس والروح . يطهّر الانسان داخلياً . يخرجه من الحيوانية ويدخله العالم الروحي . يؤدبه ، يهذبه ، يمنعه عن الجرائم والبذاءة . يدفعه الى عالم الانسان الحق . بهذا يستطيع الفن العربي ان ينقذ السياسة العربية .

وهذه من البديهيات . فرجال القيادة عندنا يساعدهم الفن (كالشعر والموسيقى والادب والرسم) يساعدهم في حل مشكلات هذا الشعب لانه المنطلق الذي يجب ان ينطلقوا منه ولانه المرجع الدائم لهم . انه بكلام آخر المستودع الذي يجب ان يستمدوا منه الذخيرة . ولكي يكون الابداع القيادي كاملا، عليه ان يكون منطلقاً من الفن والا كان ناقصاً .

الفهم والادراك والبعد القيادي .. هذا كله لا يتم بانعزال عن الفن ، وإلا ساد الفراغ الذي يؤدي الى الانحطاط . الفن يبعث في الهيكل القيادي الذوق والجمال والقدرة على الخلق . وبهذا لا انفصال بين السياسة والفن ، بين القيادة والابداع .

ومن البديهيات ان الفن يساعد التجار ، يساعد الطبيب ، يساعد العامل ، ليس في مهنة كل منهم وحسب ، بل كذلك ، في المسلك السياسي الذي يسلكه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الغرب ، الفن التجريدي

* لنعد الى الفنانين اللبنانيين . معظمهم يقولون : ان الفنان في لبنان منفتح على فنون الغرب اكثر من انفتاح غيره من اللبنانيين العرب . كيف يمكن الاستفادة من هذا الانفتاح دون الوقوع في التقليد وفقدان الشخصية ؟

غيراغوسيان ـ الاساس كما ذكرت هو الفنان وما يحمله من اصالة وعمق . الاساس هو الايمان بالطبيعة وبالانسان وثبات هذا الايمان . عندها يستطيع ان يستفيد من فنون الغرب وفنون العالم كلها ، لانه باصالته وعمقه يستطيع ان يصهر كل الفنون في فنه هو .

اما اذا كان غير أصيل ، فسيسقط هو والفن الذي يأخذ عنه . واذا كان الفنان اللبناني منفتحاً على الغرب فلأن لبنان وثقافة لبنان وطبيعة لبنان منفتحة ايضاً ، وليس في ذلك عيب. العيب ان يخضع الفنان اللبناني للفنون الغربية . عليه ان يسخّرها لفنه دون ان يتأثر بالقشور كالشكل او المدرسة .

* أنتقل الى موضوع آخر ، وهو الفن التجريدي . قرأت في احدى المجلات (والكلام لك) أن الفن التجريدي هو نزع الطابع الوطني والقومي عن الفن ، انه تغرير وتضليل للشعوب عن قضاياها .

غيراغوسيان ـ انا قلت ذلك ؟ غير معقول .

* ورد في الحديث عنك انك كنت تتصارع مع نفسك بين ان تنتقل الى التجريدية أو لا .

غيراغوسيان ـ انا لم أقل هذا . بالطبع هم كتبوا عني ذلك ودون علمي . انا انظر الى

التجريدية كفن اخذ الواقع الى الطرف الاخير . هو واقعي اكثر من الواقع ، والتجريديون هم الذين يرسمون الطبيعة : الجبل ، والشجرة ، والبيت ،ليس الشكل الظاهر بل الشيء الذي لا تراه العين المجردة . انهم بذلك يرسمون تلاعب المادة وحركة الطبيعة من الداخل.بهذا تصير الطبيعة قريبة جداً . تبدأ بالانحلال لتدخل العين عن طريق الألوان والخطوط لتتركب مرة ثانية داخل الانسان . واذا لم تشعر بذلك وانت تتأمل لوحة تجريدية فمعنى ذلك ان اللوحة فاشلة ويكون الخطأ في الفنان نفسه لا في المدرسة .

المدرسة التجريدية انطلقت من الطبيعة ، من اشكالها أولاً ثم تخطت ذلك الى الحركة والايقاع . انها تطوّرٌ للرومنطيقية، وليس في ذلك أي فصل للتيار الوطني أو القومي عن الفن . أنا لا أعرف معنى هذه الكلمات .

يبقى ان اقول ان الذين يرسمون الانسان يصعب عليهم ان ينتقلوا الى التجريدية . للانسان الف شكل والف لون،والعالم النفسي للانسان عالم صعب معقد وواسع، فالفنان المهتم بهذا يصعب عليه ان يترك هذه المواضيع ويجعل من الانسان ألواناً وحسب .

لذلك اتهم الشبان الصغار الذين يبدأون بالتجريدية ، معتقدين ان اللوحة هي الألوان وحدها. إن في اللوحة حياة وحركة وهذا لن يأتي فجأة .

اقول اخيراً ان المهم هو الابداع في اللوحة التي تفرض نفسها وليس المذهب او المدرسة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النقد والابداع واحد

* كيف تنظر الى النقد الفني عندنا وهل يساعد النقد الفنان ؟ وهل تأثرت انت بالنقد ؟

غيراغوسيان ــ الناقد الفني يجب ان يكون فناناً (شاعراً،مفكراً،رساماً،موسيقياً). الناقد والفنان شخص واحد واذا لم تعترف بوجود الناقد فمعنى ذلك ان الفنان غير موجود كذلك، والعكس صحيح . النقد والأدب ، النقد والابداع واحد . بمعنى آخر الناقد الكبير مبدع كبير . والناقد ليس الذي يشرح اللوحة ،يفسرها او يكشف عن الخطأ فيها ويفضح الفنان . وليس الذي يصنف الفنانين : الى فنان فاشل وفنان ممتاز . هذا ليس بناقد . على الناقد ان يخلق جواً آخر ، لوحة ثانية ،فكرة ثانية ، وحياة اخرى في نقده . النقد ليس تحليلاً انه اضافة .

وانا بالطبع استفيد من هؤلاء النقاد . الناقد في لبنان يكره الفنان والفنان يكره الناقد هكذا تسقط المحبة التي تربط بين الاثنين. أنا ارى أن على الفنانين ان يجتمعوا ويتدارسوا فيما بينهم واقصد بذلك الشعراء والادباء والرسامين . بذلك يصبح النقد حواراً لا شتيمة .

* قال النقد عنك سابقاً : انك قائد النزعة التصويرية في لبنان .كيف تنظر الآن الى مثل هذا القول ؟

غيراغوسيان ــ هذه أقوال صحافة . وتبقى بالنسبة اليّ اقوال صحافة . انا لا أفكر بهذه التسميات ولا تهمني ابداً . المهم بالنسبة الي أنني اعمل ، اما الشخصية فتأتي مع تراكم العمل . العمل وحده هو الذي يحدد الشخصية وخلاله يكتسب الفنان طابعه الخاص . عندها يحمل كل

خط وكل حركة وكل لون في اللوحة معنى هذا التراكم . وبهذا يصبح مجموع اللوحات السلم الذي يرتقي عليه الفنان ليصل الى نفسه والى الآخرين .

بدأت في الفن كلاسيكياً ، وتأثرت بالكلاسيكيين . ثم انتقلت الى المدرسة الانطباعية ومنها الى التعبيرية ، ومنها كما ذكرت سابقاً ، اتجهت الى الشرق . لم أصمم، لم أضع البرامج . تمّ هذا الانتقال نتيجة الحوار الداخلي ونتيجة الاحتكاك مع الطبيعة ومع الانسان . قد لا أستطيع أن أتحدث عن الماضي ، لأن الشيء الذي يشغلني هو ما أرسمه الآن ، هو عالمي الحاضر . واشعر ازاء هذا العالم الجديد انني أكتشفه لاول مرة . لذلك أحسّ انني ما زلت في البداية . وكلما خطوت خطوة الى الامام ، اقف لأعبىء قواي وامكاناتي لأستمر . انه غزو ، وفي الغزو خوف وفزع آتيان من اصطدام القوى المتصارعة ، ومن الوقوف وجهاً لوجه امام نضارة العالم الجديد الذي تكتشفه .

لذلك أحاول ان اهبط الى هذا العالم بنظرة جديدة عميقة داخلية للطبيعة ، نظرة جديدة للألوان حتى أتوصل لان أعبر بكل النواحي بنضج أكثر . همي ان انتج حياة اكثر ، وهذا يأتي بالعمل الكثير المرهق ، المضني . يأتي بالانصهار التام مع الطبيعة ، المعلم الاكبر ، معلمي الذي كلما اتحدث به ازددت فهماً .

ستبقى هناك اغنية جديدة

* تتحدث كثيراً عن الطبيعة، أي طبيعة ؟

غيراغوسيان ـ الانسان والحيوان ، الشجر والجبال ، الارض والسماء ، اللهب الذي يتأجج في الداخل ، الذي يدفع كل هذه العناصر الى التحرك ، الذي يجعلها تتلون وتتغير ، اللهب الذي يربط الانسان مع الشجرة ، مع الجبل ، مع الحيوان باعثاً في الكل أنفاساً جديدة نسميها حياة .

هذا ما يدعوني لان اترك كل شيء سهل . لاتناول الشيء الجدي ، الصعب . انه يفتح امامي آفاقاً واسعة بلا نهاية .

لم افكر يوماً انني قائد لفن ما . أنا في الفن ، لا شيء . أسعى ان اكون ، ولكن لا اعرف متى . المهم هو العمل ، المهم هو الوصول الى مرحلة النضج الكامل وهذا يتطلب حياة طويلة جداً .

نرجع الى أقوال الآخرين . اذا قالوا عن عملي انه جيد وجميل ، فاني اعتبر ذلك من الماضي ، وانه انتهى . الشيء الجيد الجميل هو ماذا سأفعل في الغد وبعد الغد . لا احب ان اغني الاغنية نفسها التي غنيتها البارحة . اني افتش عن اغنية جديدة..وسيبقى هناك أغنية جديدة.

اللوحة لا تنتهي

* من النقد الذي يوجه اليك : ان اللوحة عندك لا تنتهي وانك ترسمها بسرعة .

ـ نعم لا تنتهي . انني ما زلت ابحث عن حل لتنتهي . لكنني اقوم بعمل لا ينتهي اطلاقاً. أعني لا نهاية له . اللوحة ليست طاولة او كرسياً لتنتهي . انها كل شيء مفتوح ،كل شيء لا

نهاية له . أترك اللوحة مفتوحة . اترك المجال لشيء سيقال بعد . أنا شخصياً لا اعرف ما هو لكنني احس واشعر جيداً ان هناك شيئاً بعد .. هذا صدق واخلاص للوحة .

عدم الانتهاء آتٍ في لحظة هي لحظة المعرفة التامة التي يعرف فيها الفنان كل شيء ويرى كل شيء ، لكنه يدهش ويغيب وتعجز كل الالوان وكل الاشكال عن التعبير . لذلـك يقف . هذه الحالة يصل اليها الفنان عن طريق اللوحة ليعود فيسعى من جديد في لوحة ثانية ليحصل على مثل هذه اللحظات (أحاول ان اعبر عن هـذه اللحظات) هكذا تكون جميع لوحـاتي لوحة واحدة ، لوحة تحس تجاهها ان لوحة « جديدة » ستعلق الى جانبها .

اما من ناحية السرعة فهذا عائد الى المزاج وطبيعة الفنان . المهم هو الصدق ، كل خط كل ضربة فرشاة ان كانت سريعة او بطيئة اضربها من قلبي كله . انها كنبض القلب وغالبـاً ما تكون سريعة لان نبض قلبي سريـع .

اليوم صباحاً رسمت فتاة صغيرة ، وخلال العمل رحت في غيبوبة . كانت نظرات الفتـاة غريبة جداً . عالماً واسعاً وغريباً . كان من الصعب على اي فنان ان يجمع هذا العـالم كله . لكنه يستطيع ان يأخذ قسماً صغيراً ، لذلك كنت مستعداً لالتقط هذا القسم قبل ان يهرب مني ، فعملت بسرعة جنونية حتى انتهيت . وعندما استيقظت قيل لي انصديقاً عزيزاً لدي، حدثني وانا اعمل فلم ارد عليه . الحقيقة لم اسمعه . قلت له لا استطيع ان ارد عليك . اظن انني لو توقفت عن العمـل لاضعت اللوحة . انها عملية غزو ، والسرعـة ضرورية كي لا أخسر المعركة .

اعود فأقول هذا يختلف من فنان الى فنان . « فان كوخ » كان يرسم اللوحة بساعتـين . « دي فنتشي » كان سريعاً كذلك . هناك فنانون يستمرون في رسم اللوحة ست سنوات . هذه الامور لا علاقة لها بالفن . المهم هو ماذا يعمل الفنان . المهم هو الخلق نفسه لا عملية الخلق .

* لننتقل الى المعارض .كم معرضاً أقمت حتى الآن ؟

غيراغوسيان ـ ٢١ معرضا ، في باريس ، روما ، ميلانو ، فلورنسـا ، فرنكفورت ، ميونيخ ، وفي لبنان أقمت حوالي ١١ معرضاً عدا المعارض الـتي اشتركت فيها مع غيري من الفنانين كمعارض الخريف والربيـع .

اصلي ... لا اعرف

* تبيـع كثيراً؟

غيراغوسيان ـ بقيت ١٣ سنة لم ابع لوحة واحدة . يوماً زارني شخص واشترى لوحتين ، ومن ذلك الوقت عرفت ان الفنان يقدر ان يبيـع لوحاته . لكن لماذا يشترون لوحاته وكيف يشترون ؟هذا ما لا اعرفه حتىالآن .

* هل الذين يشترون منك هم من الاصدقاء ؟

غيراغوسيان ـ كلا . اكثرهم من الاجانب . من المانيا وفرنسا وانكلترا واميركا . لاحظت ان شيئاً في لوحاتي يجذب . فيها سر غير اللون . اللوحة هي هذا السر . كلام يتحاور مـع الاخرين . دعوة الى الناس . حديث سري . وربماهمس .

★ هل عندك زبائن يشترون دائماً ؟

غيراغوسيان ـ اكثرهم جدد . حتى اليوم لم اسجل عنوان احد . ولم اجرب ان انظم اعمالي كباقي الفنانين . المهم بالنسبة الي هو اللوحة نفسها . ان تكون احسن واعمق من التي سبقتها. ومن ثم يأتي المشتري . احياناً يصدف ان يشتري احدهم اكثر من لوحة وهناك من يشتري دائماً. ربما لانه يعجب بلوحاتي كثيراً . لست اعرف ..

★ الى جانب عملك الفني هل تدرّس؟ اغلب الفنانين اللبنانيين يدرّسون.

غيراغوسيان ـ نعم أدرّس في الجامعة ، ساعتين في الاسبوع ولا اعمل أي شيء آخر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

★ في معرضك الاخير تتحدث عن الغيبوبة .. والدخول الى الاعماق .

غيراغوسيان ـ الماضي كله ، طفولته، تجاربه ، الماضي بتراكم خطوطه يدفعني الى هذه الحالة . ثم انها هدية من الزمان ، ان ترى الاشياء ابعد من السطح ، وتحس بصدق كبير وأنت تعمل وتشعر انك مندفع بقوة غريبة نحو الانسان . الغيبوبة التي اتحدث عنها ، اعني بها الحوار بيني وبين الذي ارسمه . وهو حوار ليس بالكلام او الالوان بل حوار بالفهم ينطلق من اعجابي ودهشتي بالطبيعة .

والغيبوبة هي الرعب من ان يضيع هذا الحوار في اللوحة . انها ، بمعنى آخر ، الرعب من الفشل امام الطبيعة .

عندما تبدأ بالعمل ويبدأ العالم يتحول بين يديك وتفتح أمامك الابواب والشواطىء ، وتستيقظ فيك الحواس كلها وتنسى نفسك وتنسى الزمان والمكان ، ويتسرب اليك فرح الاشجار وفرح البحر وفرح الانسان القادر ، وفرح الارض في لحظات الخلق ، تكون انت محمولاً بين طيات غمامة الغيبوبة .

الغيبوبة هنا هي شدة الوعي والادراك . هي قوة الارادة في اعادة البناء من جديد . انها اللحظة التي ترى فيها كل شيء وتدرك ، وتعلم ، وتكون قادراً على كل شيء . والفن منذ فجر التاريخ يحاول ان يسجل هذه اللحظات .

★ سؤال اخير ، هل تصلي ؟

أصلي ? نعم أصلي .. على طريقتي الخاصة .. أصلي كثيراً . نعم أصلي .. لا اعرف .

سمير الصايغ

شهادات

الثورة العربية :
من ثورة السلطة الى ثورة الشعب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه شهادة يمليها الاحساس المرير بالجرح والشعور الحـــادّ بالحالة الحصارية التي نحياها جميعاً : حالة القصور الذاتي ، والديماغوجية الحمقاء والتوضّع الاقليمي الناضح بالعار . إنها محاولة توضيح اكثر منها محاولة اثارة . نوع من وضع السكين في الدّمل ، في قاع الجرح ، وليست على الاطلاق تشفياً او ادانة حاقدة موجهة الى احــد بالذات ، الى حكم او سلطة او نظـــام معيّن . انها حالة انفجارية للانفلات من حالة الحصار هذه ،النفسية والتاريخية معاً . لغيري ان يضج ويصخب دفاعـــاً عن الأوضاع الثورية الراهنة في وطن العرب . ولغيري ان يسوّغ أملاً بتفـــاؤل مستقبلي ينبثق من حالة الكمون الراقدة في الأجيال . ولغيري ان يمســح ثياب السلطة وأحذيتها هادفاً المنصب والامتيــاز والكسب المادي . ولغيري ان يصمت جبناً او تخاذلاً او يأساً . اما أنا فأقول ما ينبغي ان يقال ، لا تبجحاً او طعناً او ثأراً او ليقال عني انني قلت شيئاً مثيراً . ابداً . اقول هذا ليقيني ان ما اقوله ينبغي ان يقال بشكل او بآخر ، وربمـــا جربت الأشكال الموضوعية الرزينة والرسمية ولكنها كانت تصطدم بجـــدار لا يحس. انني اقول بقينياتي في مجلة تريـــد ان تكون حرة وموضوعية . وجميـــع الأفـــواه الغبيــــة ، الديماغوجية ، المسرطنة بالإرهاب والتعصب والمقذوفة بقـــدرة الى مراكز حسّاسة ليست اهلاً لأن تكون حجّاباً على ابوابها . هـــذه الأفواه هي التي ستتّهم وتـــدين ما في هذه الشهادة من صراحة وألم ونزف .

هـــذه الأفواه الغوغائية – ولا اقول الرؤوس لأنها بلا رؤوس اساساً – قـد تتقول وتشـير حق تتهم بالخيانة وخدمة الصهيونية والرجعية والامبريالية . انها مأساة جيـل يحاول بدمه وضوء عيونـه ، ان يخرج الى الشمس ، الى الحرية ، الى الثورة ، لحظة يمسك عبيد السلطة وكهّان المراكز الحساسة وغلمان الثقافة في هذا الوطن حبل المقصلة ليفلتوه بعنف على رأس الشمس والحريـة والثورة تحت لافتة الحفاظ عليها .

يحدث هذا بعد ان اصبح مفهوم الثورة يساوي السلطة حرفياً ، ويساوي السياسة او يساوي من معي ومن ضدي داخل التنظيم الواحد والثورة الواحدة. أعلن هذه الشهادة لأنها ممنوعة ، ولأن اسوأ ما يمكن ان يهان الانسان بـه في هذا العالم هو ان تمنع كلمته ، وان يقال له :لا ،إنّ ما تقوله ضار ويخدم الاعداء. يحـدث ذلك لحظة يُغضّ النظر وتستحي الأعين عن العدو الحقيقي الناشب فينا ؛ لحظة يُباشرُ المنع من قبل الأميين والامتيازيين القراصنة الصغـار الذين يتقنون الشتيمة والتهريج ورفع التقارير واستعداء السلطة .ان جحافل الجهلة ، والكسّابين ، والديماغوجيين ، والتبريريين ، والجبناء والانتهازيين ، والمخبرين ، تتقدم.ولذا فأنا اتراجع .ان السياسيين ، والاقليميين ، والحـكام ، والاتهاميين ، يتنكبون درب « الثورة » . ولذا فأنا اتنحى نحو الوعر والغابات وطن الثورة الاصلي .ان هذه«الأنا» تعنيذلك المواطنالعربي الملتزم بالثورة لا بالسياسة، والذي يرفض المساومة وحسابات الربح والخسارة ، ويقول كلمته وهو تحت المقصلة . انه ذلك الذي يقتل المحتل ويُقتل بلا مراسم دفن. ان ما هو حقيقي غير قائم ، والشيء الحقيقي الذي ينبغي ان يقومهوالثورة. والفدائيون اليوم هم الطلقة الأولى التي خرجت من بندقية الثورة ، ومـا عداهم باطل الاباطيل . انني اقول كلمتي – كما ينبغي – وانا من الداخل بجرأة شهيد . اقول ضارعاً ان اكون مخطئاً .

ان العربي الثوري لا يعرف الخوف ، اما الانتهازي فيرتعد ولذا فهو يخنـع ويستجيب . العربي الثوري لا يعرف المهادنة ولا يساوم ، اما الامتيـازي فيستقتل في المديح والزلفى والتمسّح .العربي الثوري يرمي كلمته كالسكين في وجه الانحراف والغباء والحماقة والغطرسة والكسب ، اما السلطوي السياسي فمخاتـل يطعن في الظهر ويتحينفرصة الغدر ليوقع بالثوري . الثوري واضح كالشمس ، اما السياسي فعاتم كالغدر .

في البدء الانسان ثم الحرية ، ثم الخبز .

قد تصلح هذه الكلمات مطلعاً لقصيدة . لكنها اكثر صلاحية – رغم نفحتها الرومانسية – لأن تكون مدخلا الى الثورة . في عالم التكنيك والحريرات والغازات ، يصبح البحث في الانسان والحرية ضرباً من الطوباوية . يحدث هذا عندما تتخثر الأشياء وتفقد شفافيتها وروحها الحية ، لتصبح كتلة صماء ، ارقاماً هكذا يصبح الانسان ايضاً . انها فجيعة بالطبع ان يتحول الانسان الى حريرة وحسب ، او هدف قتل ، او محض رقم . وفي عالم كهذا تصبح القيم كالحجارة او النفايات . ولكن رغم فاجعية هذا التحوّل او حتى امكانيته ، فان السؤال الاساسي يظلُّ قائماً : لماذا الثورة ؟ أقول مباشرة وبلا ادنى تردد : من اجل الانسان . وباللاتردد ذاته اعرّف الانسان بانه حرية . ونقيض ذلك هو اللاثورة . هو الارهاب . ان هذا النقيض يعني العودة الى اغلاق الدائرة مرة اخرى . الدائرة الضاغطة ، الخانقة ، الشديدة الاظلام ، ولكن هذه المرة تحت شعار : الثورة – الضرورة . كيف نعرّف الثورة ، اذا كان علينا ان ندخل في تفصيل المجردات الضخمة ؟ هل نقول : انها تغير من اجل التقدم الانساني ؟ ام انها قلب بنية المجتمع من اجل عالم انساني افضل ؟ ام هي حركة طبقة مستغلة مقهورة لالغاء استثمار الانسان للانسان ؟ ام نقول : انها تحرك طليعي منظم فاعل ، لتجسيد عالم بلا استغلال ، بلا ارهاب ، بلا تخلف ؟ اننا نرى ان جميع هذه التعريفات الصحيحة تصب في النهاية في بؤرة الانسان ، هذه القيمة العظمى . ان البحث في كيفية ما قبل الثورة والتهيئة لها لتجسيدها واقعاً ، لا يقع في مساحة الخطأ واشارات الاستفهام والتردد . اما الخطوة الأولى بعد التنفيذ فهي البداية التي تنبىء اننا في الثورة او خارجها . والسرطان الحقيقي الذي يرعى ضمير الثورة هو الشعارات والكلمات التجريدية التي لا تقع على الأرض ، وخشبة الصلب والتشويه هي تحريف مفاهيمها لتصبح مجموعة من المراحل الستراتيجية او التكتيكية .

وجودياً وتاريخياً ، ترتبط الثورة بالثوري ، ولذا فعندما تتعرض الثورة للشك فمعنى ذلك ان الثوريين قد اهتزوا . يحضر للثورة تنظيم طليعي ، مشكل من انماط تتمتع بصفات تمردية معادية لما هو قائم اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً ، وهذه الانماط سابقة ومتقدمة في الوعي على مجتمعها ، مدركة للتناقض الحادّ الذي يمزق المجتمع ، وتمتلك وهي تتحرك لنسف بنية المجتمع القائم ، دليلا

نظرياً واضحاً في المعرفة والسلوك. ان الصفة التمردية المتوترة ابداً — بوعي لا بتشنج متعصب — هي البؤرة النفسية التي ينبغي الا تخمد، لانها المحرك الدينامي في المستقبل، كما انها الجدار الواقي لعدم الوقوع في فخ السلطة كسلطة مجردة، وفي مستنقع الامتياز. ان هذا يمكن تسميته «بيقظة الذاكرة». ليس تحويل المجتمع المحدد او العالم الى الأفضل من اجل الانسان، بامنية رومانسية، لكنه حقائق فعلية متجسدة لا تقبل التأجيل او المماطلة او التحريف. وذلك بالضبط اختيار الثوريين الصعب وتحديهم امام الآخرين رائع جداً التغني بالحرية ونشدان الكلمات المفعمة بها، اما التحدي الاكثر روعة فهو تجسيد الحرية بعد الثورة بلا تردد. رائع، كذلك، الحديث عن العدل والتكافؤ والموضوعية، لكن الصعب هو كيفية تحقيق هذا العدل وهذا التكافؤ وهذه الموضوعية بلا ضجيج، بعد الثورة. ان اعادة النظر في بنية المجتمع، تعني اعادة خلق التاريخ من جديد، وهذه مهمة الثورة الكبرى، غير ان هذه العملية المبدعة تحتاج الى جرأة فريدة، وتحتاج الى وعي فذ، والا تحولت الثورة الى عمل مغامر، انفعالي، ميلودرامي. نسف المؤسسات القائمة قبل الثورة، لتقوم مقامها مؤسسات جديدة، مهم وضروري، لكن الاكثر اهمية وضرورة، خلق الانسان الجديد، وتحطيم المفاهيم والاخلاقيات القديمة، واستيلاد مفاهيم قيمية جديدة يحملها ذلك الانسان داخل تلك المؤسسات. ان التغيير المادي لا يؤدي الى تغيير نفسي بالضرورة. الجذري ابداً، الأساسي ابداً، هو الانسان — النمط الثوري، المتقد الذاكرة، الواعي، المبدع، اللامساوم، المتحدي، الذي يتحرك ويعمل بصمت. ان المهمة الأساسية للثورة هي خلق هذا الانسان الجديد وهي ان تكون المؤسسات وسيلة الى هذا الانسان. والتوكيد على الذاكرة الثورية المتيقظة، تضع الثوري في مناخ الشمول. في مناخ الزمن بابعاده الثلاثة وبمعناه التاريخي. ومهمة هذه الذاكرة ان تقوم ابداً بفعل التجاوز اليومي، وحيوية الخلق بعد ان تكتشف رخاوة ما كان قائماً وسكونيته وفساده وعجزه. ان عملية الخلق هذه تنبع جذراً من الحرية. ولأن الثوري يعرف كيف يغتصب الحرية من الطغاة، عليه ان يتعلم ايضاً كيف يمنحها للآخرين دونما خوف وهو في قمة السلطة حتى لا يتحول هو الآخر الى طاغية.

— ولكن الحرية لمن؟ انها ليست للقوى المعادية التي سقطت، والتي تحلم

بالعودة الى السلطة واسقـــاط الثورة بالطبـع . ولكنها لجميـع افراد الشعب الآخرين الذين وجدت الثورة من اجلهم .

– ولكن اية حرية ؟ الحرية التي لا تتجزأ بالنسبة الى الانسان ، والـــتي تسوّغ وجوده الكوني على الأرض ، الحرية التي ليست فوضى او عدوانيـــة او تجسساً . ان ضرب القوى المعادية من اقطاعيين ورأسماليين وتجار ورجـــال دين وزعماء قدامى ، يعني خلق مناخ ثوري صحي تصبح الحرية فيه بجدهـــا المطلق ضرورة ثورية . فالشعب البسيط العامل عفوياً مع الثورة وليس معادياً. والانسان البسيط العادي من جماهير الشعب لماذا يصيبه رشاش المنع والشـــك والرقابة وهو بريء؟ ان اعداء الثورة معروفون ومفرزون وهؤلاء ينبغي ان يصفّوا مرة واحدة والى الأبد . وبذلك لا يؤخذ المواطن العـــادي بجريرتهم وقوانين محاكمتهم . ان قوانين الثورة تكتشف من خلال الواقع والتجربـــة الثورية المستمرة ، التجربة المتجددة التي لا تتوقف عند تحدي ذاتهـــا وتخطيها حتى النهاية . فالثورة قد تستطيـع بناء قاعدة اقتصادية ضخمة وهذا واحـد من قوانينها الأساسية الذي لا يمكن اغفـــاله ، لكن القانون الأساسي الآخر والأهم هو كيف تبني انساناً جديداً ، جيلاً جديداً ، مجتمعاً بشرياً جديـــداً ، يتمتع بالحرية والقيم الثورية المبدعة . ويؤكد « غيفارا » اعظم ثوري معاصر ذلك : « انه لا يمكن بناء القاعدة المادية للاشتراكية دون تنميـــة الوعي الاشتراكي . ومعنى ذلك ان القانون الايديولوجي هو القانون الاساسي في الثورة وليس القانون الاقتصادي . فليست القاعدة المادية العنصر الحاسم في خلـــق الانسان الجديد وانما الوعي الاشتراكي هو الاساس ، وهو الذي يشكل مسلك الانسان الجديد ونشاطه » . فماذا بالنسبة الى الوطن العربي والإنسان العربي ؟ هل يعيش الثورة ؟ ام انه يفكر بها وحسب ؟ ام يقترب منها ؟ يتمخض الوطن العربي بالثورة ، لكنه لم يلدها بعد . انه يعيش مشروع ثورة وهـــذا المشروع معقد مهدد بظروف ذاتية قاتلة . ان الظروف الموضوعية ناضجة ومختمرة ، أما الذاتية فقاصرة انانية اقليمية تثير اقصى المرارة واقصى الغثيان . فما هو قائم فوق الأرض العربية ليس ثورة . ما هو قائم اتهام ثوري وهـــذا جارح ومرير ، لكنه حقيقي . ان اعظم ثورة في تاريخ العرب المعاصر مثلاً هي ثورة الجزائر . لقد تحولت بعد سنوات قليلة الى دائرة اقليمية ملتهبة بالصراع الداخلي . ومـــا يسمى بثورات عربية اخرى ليست افضل على الاطلاق . والجواب عن : لـــماذا

يكفّ وجيب قلب الثورة فيما بعد ؟ هو : لان ذلك الخفقان بالاساس هو لقلب من البلاستيك .

قد يكون الخطأ الوحيد القاتل : ان من يقوم بالثورة حفنة من المغامرين الانفعاليين القاصرين فكرياً ، والذين يتحولون فيما بعد الى حكام سياسيين متشبثين بالسلطة والامتيازات لا يجرؤون على مواجهة التحديات خوفاً من اخلاقيات المجتمع القديم الذي يحملون بعض بذوره في نفوسهم الناقصة . ربما لم يئن الأوان لقيام الثورة . هذا وارد اذا ما دخلنا في التحليل النفسي والاجتماعي للأجيال الناقصة ، الاجيال التي لم تبلغ سن الرشد الثوري ، ولم تكتشف بعد قوانين الثورة . ولكن : في عصر اسرائيل الغازية ، اسرائيل الصليبية الى متى الانتظار ؟ ان عشرين عاماً من الاحتلال ، وثلاث هزائم ساحقة كافية لتحريك الحجارة . ومع هذا فالحصاد كان اكثر من مشروع ثوري فاشل ، واربع عشرة دويلة بعضها ينتمي الى ما قبل التاريخ . والانسان العربي في هذه الدويلات ليس مكبلا وحسب ، لكنه مقتول وهو حي ، مستلب وهو مالك ، مستعبد وهو حر ، مخدوع ومخدر وهو في كامل وعيه واستيقاظه . انه يعيش مناخ ثورة ولكنه لا يثور لأنه جبان غير موجد ، منقسم على ذاته ، والثورة فيه لكنه يتحرك خارجها . وهو في الدول الثورية ليس افضل حالاً ان لم يكن أردأ . قد يكون هذا ممضاً ومؤنساً ، حالةَ حصار حقيقي بالمعنى الدرامي والوجودي للكلمة . حالة الحصار هذه قد تكون خميرة التمرد ، والحافز للوثبة الاولى في حركة الثورة الحقيقية ، غير ان شدة الحصار قد تفاقمت من هذا الشتات الثوري داخل الانظمة التي أنبأت عن نفسها بانها ثورية تقدمية في حين انها تمارس وجودها بقوانين وتشريعات غير ثورية . ما هو على السطح يخدع ، يشبه الثورة . لكن الاعماق ملتاثة محرورة . ان الضمير الثوري غير قائم في هذه الانظمة وهذا محزن ، ومخيّب ، ومرير . نقول ذلك والجرح في الجسد والنفس ، والاحباطات ماثلة ، والانين والصبر والتسويغ لا تصنع ثورة . والتفاؤل كذبة ذاتية نمارسها لتغطية العجز ولاستمرار السلطة لا الثورة . اننا نرى جيداً وبوضوح التوضع الاقليمي القائم ، ونرى الغوغائية والارهاب ، والبيروقراطية ، والامتيازات ، والاقتتال الذاتي من اجل السلطة . لماذا لا يعلّم هذا العصر المتفجر اولئك الذين انكبوا على نفوسهم ، وانغلقوا في وجه العالم وضد مواطنيهم ، أولئك الذين لا يعرفون القراءة الا في كتابهم الاحمر او الاصفر ،

اولئك الذين كتبوا على واجهات مكاتبهم وعلى سياراتهم وصدورهم ومؤسساتهم الاقليمية،لافتات ثورية يسارية . لماذا لا يعلّمهم الا يغمضوا عيونهم ويصمّوا آذانهم عن نداء الوحدة العربية والحرية ، في حين تزحف اسرائيل باتجاه عواصم مكاتبهم ومراكز امتيازاتهم ، وفي حين تُسلط الحرية ، ويُجلد الانسان تحت شمس مدن العرب التقدمية الثورية . انه لغبي او احمق او تاجر ، من يقول اننا نعيش في عصر الثورة العربية ، لحظة يدرك ويرى اننا مستمرون في عصر الانحطاط ، عصر الدويلات والولايات ، عصر الفاطميين وبني بويه والقرامطة والسلاجقة والمماليك ، عصر التجزئة الحقيقية ، بينما الصليبيون الجدد يدقون ابواب المدن العربية . ان ذروة المأساة القائمة بالنسبة الى مشروع الثورة العربية ، انها تشبه شكلا ولافتات ، الثورات الأخرى ، في حين انها مضموناً وتطبيقاً نقيض ذلك . انها حالة ناقصة ، ليست ماركسية النهج ولا ليبرالية ، ليست ديمقراطية ولا دكتاتورية ، نصف برجوازية ونصف بروليتارية ، وحدوية واقليمية معاً ، ضد الشعب ومعه في آن ، تملأ الدنيا دوياً عن الانسان والعدل والتكافؤ والموضوعة ، وتغتال هذه المفاهيم في كل مشرق فجر ، رامية قفاز الاخطاء والثغرات والقصور في وجه الاستعمار والصهيونية والرجعية . انها حالة سائبة : متوقفة من الداخل ، متحركة من الخارج ، لكنها تُراوح ابداً في مكانها الرخو . من التواطؤ ألا ندين الاستعمار والصهيونية والرجعية ، كأعداء طبيعيين للثورة ، اية ثورة . ولكن من الكذب والقصور ، الا ننظر في مرآتنا الذاتية ونرى شبه الثوري فينا عوضاً عن الثوري — الثوري الذي ينبغي ان يتقدم ويحرق كل ما وراءه وكل ما يعيقه ، في سبيل الانسان والحرية والابداع ، في سبيل جميع المقهورين والمضطهدين . ندرك جيداً ان في داخلنا قصوراً ذاتياً ، ولكن هل الانسان الكوبي او الصيني او الفيتنامي اقل قصوراً واكثر وعياً وتقدماً وجرأة ؟ الم يُستعمر ويُضطهد ويرسف في التخلف مئات الأعوام حتى صار على هامش التاريخ بين شعوب العالم ؟ ثم لماذا فجأة صار حديث التاريخ وامثولته ؟

الايمان والتمسك بالسلطة قد يقيمان نظاماً ادارياً بيروقراطياً ، ودولة قائمة بمؤسسات وقوانين وتشريعات ، لكنهما لا يخلقان انساناً جديداً . والثورة تؤمن بالانسان قبل السلطة ؛ والانسان تعريفه : حرية وابداع ، مطلقان مستمران .الخوف من الانسان يؤدي الى الارهاب . وهذا مرض ثوري تفشّى

في جانب من ثورات عالمية ، لكنه طغى على ما نسميه اليوم ثوراتنا العربية فأكلها حتى صارت هياكل ثورية يسيطر عليها ويحركها طغاة وبيروقراطيون ومخبرون وديماغوجيون ، حوّلوا الحرب ضد اسرائيل والامبريالية الى حرب وقتال داخليين ضد المواطنين من ابناء الشعب تحت ستار الخوف على الثورة من التآمر والانقلابات المضادة . انه لأمر محزن ومخيف ومن الصغار ان تتحول ثورة الى سلطة مخابرات ضد الانسان والمواطن العادي بدلاً من ان توجه الى الجواسيس والخونة . لماذا يهيمن عمالقة الانتهاز ، والامتيازات ، والحمقى ، وكهنة السلطة ، في القطاعين المدني والعسكري ويديرون دفة الثورة ،في حين يتوارى الشرفاء من الثوريين ويصمتون ؟ ولماذا العصر عصر الزيف والمكاسب واستهداف المنصب والتمسح باحذية السلطة الحاكمة والقيادة المؤلهة المنزهة عن الاخطاء؟ولماذا تُحرّف الديمقراطية وتخرّج لها تشريعات وتوضيحات لولبية لتصبح ديمقراطية مركزية في قمة السلطة ، اي بالمعنى الحرفي « دكتاتورية القيادة ؟ »

نتحدث بعمق عن جمهورية عادلة للانسان ، ونهرق انهار الكلمات في سبيل التبشير بدولة اشتراكية ديمقراطية . ويظل الحديث والتبشير مثالاً افلاطونياً يقوم في الذهن ولا تقوم الدولة ، ولا يقوم الانسان . وهكذا نخدع ونتخدع ، نكذب ونزيف ونبالغ ونضج ، حتى نصدق انفسنا واذ نفشل نرمي ذلك ، بعضنا في ظهور البعض الآخر او في رقبة التآمر الامبريالي الصهيوني الرجعي . لو هوجمت غابة لحيوانات متجانسة النوع ، من قبل حيوانات غابة اخرى مجاورة، لا تحدت حيوانات تلك الغابة رغم عدم تجانسها نوعياً ، ضد اجناسها من الغابة الأخرى ، وقاتلت دفاعاً عن غابتها ونفسها . ومع ذلك لم يتحد العرب ابناء التاريخ الواحد واللغة الواحدة والأرض الواحدة والمصير المشترك ،بعده حزيران ضد غزاة غرباء يستهدفون تاريخهم وحضارتهم ، شعبهم وارضهم ، يستهدفون بوضوح شمسي اقامة امبراطوريتهم الصهيونية فوق انقاضهم . ان الخراب النفسي والتاريخي لا يمكن ان يبلغ ذروته اكثر من ذلك ، وهذه العشائر العربية المقتتلة التي لم تدرك بعد التناقض الرئيسي في معركة وجودها تثير القهقهة والشفقة ، واحتقار العالم .ان مأساة ما يسمى الآن بالثورة العربية هي انها ليست ثورة واحدة اولاً وانها ليست ثورة ثانياً . الجمهوريات الاقليمية مزدهرة جداً ، واحزابها اليسارية تُزايد حتى تتخطى اليسار نفسه ، والحديث عميق وعلمي

ومتوتر عن الايديولوجيات ، لكن اسرائيل تقهقه وتخطط رغم تناقض مجتمعها البنيوي للزحف باتجاه قلب الانسان العربي وضميره. انهم يعرفون – اولئك الولاة – ان ليس بامكانهم هزيمة اسرائيل الا بالوحدة وبتسليح كل الشعب وتدريبه ، ومع هذا يتحدثون بحرارة ووثوق وجدية عن يقينية سحق اسرائيل بجيوش نظامية مهمتها حماية الانظمة بدلاً من قتال العدو ، جيوش غارقة في امتيازاتها وعقد نقصها بدلاً من التدريب والتحضير الحقيقي للمعركة . يعرفون ذلك والشعب يعرف ، ورغم ذلك لا يقيمون الوحدة ولا يدربون الشعب كما ينبغي . لماذا ؟ ان قيام الوحدة – الثورة يساوي سقوط الانظمة الاقليمية ، يساوي ذوبان الاحزاب في حزب واحد ، يساوي خلخلة ميزان الربح والخسارة في السلطة والامتيازات . من اجل ذلك تولد المبررات ، وتنبثق الاكاذيب ، ويتناثر الحديث عن الظروف الذاتية والموضوعية الكابحة والمعيقة للوحدة. وبذلك تبقى الأنظمة الاقليمية قائمة ، وتبقى التجزئة ، ويتململ الانسان العربي قهراً وعجزاً أمام التعنت المصلحي ،أمام هذه القيادات الجائعة الى السلطة. ما من احد بريء على الاطلاق ، والتهمة لا تلف ابناء الشعب المجردين من أية قوة او فعالية ، لكنها موجهة الى اولئك الحكام التقدميين الذين اوكلوا الى نفوسهم مهمة صناعة التاريخ العربي في هذه المرحلة . ان اصبع الاتهام تتجه نحوهم بلا استثناء ، والبريء من دم الأمة يمكنه ان ينسحب امام هذا القصور وهذه المخاتلة ثم يفضح ؛ آنذاك يبرئه الشعب . القائم في وطن العرب سياسة لا ثورة وهذا اسوأ تحول لا اخلاقي يمكن ان يطعن ضمير الثورة . فالثورة اخلاق عمل مبدع ، يحملها ويعيشها الفلاح والعامل والشاعر والجندي . والثورة مقاومة يومية وتحد متوتر لا يعرف الكلال ، للقيم العتيقة المشرّشة عبر تاريخنا ، المتناسلة فينا : قيم دينية مهترئة ، وقيم انانية متسلطة ، وقيم جنسية تحريمية مخنوقة بالخوف ، وقيم كسولة دعية فارغة تحتقر العمل المبدع وتجرده من اي محتوى خلاق .

ان الثورة ولادة حياتية ثانية جديدة للانسان على الأرض ، وولادة تحررية من الارهاب والقهر والوصاية . والثورة حرية مطلقة وتطهير من الاستغلال والقهر المادي والنفسي . اما السياسة فهي نقيض هذا كله ، هي جزء من الثورة لكنها ليست الثورة . السياسة مؤتمرات ومناورات ، استراتيجيات وتكتيك، تغييرات سلطوية وحسابات ربح وخسارة ، تكتلات داخلية وخارجية ،

مخططات سلبية وايجابية نشرات واتهامات ومؤامرات ، امتياز وانتهاز واستزلام وديماغوجية ، تجارة وكذب وصفقات مستمرة باسم الانسان والتاريخ والثورة . ان السياسة تحرك سطح الثورة ، تمس القسم الظاهري من هذه المسألة الجوهرية وقد تحدث تغييراً في ذلك السطح ، اما الاعماق فتظل بعيدة منسية لا يطالها التغيير . ولذا فالسياسة مرحلة اما الثورة فمبدأ وهدف مستمران ، والسياسة وسيلة اما الثورة فغاية . ولهذا فالمثال الثوري لا السياسي هو «غيفارا» النمط المعاصر الذي يدين عشاق السياسة والسلطة والحكم ومناضلي المكاتب البيروقراطيين الديماغوجيين . لقد نادى ، وكان يحس داخلياً ، بالتجاوز ، وضرورة هذا التخطي اليومي ، ولهذا كان يبشر بانسان القرن الواحد والعشرين المعاكس خلقياً لانسان القرن الحالي الذي سماه بالقرن الفاسد الهابط . ان المرحلة الانتقالية التي تجيء في اعقاب الثورة هي مرحلة بناء الانسان الجديد . ولكي يخلق ويبني ينبغي عدم افساده بالحافز المادي : « مهمة المرحلة الانتقالية هي تنمية الوعي ومفهوم التضحية والبطولة والشجاعة على الدوام ، فلا بد من مطالبة العمال بالتضحية في سبيل المجموع . وبدلاً من توزيع المكافآت المالية على العمال فان عليهم ان يتذكروا مقتضيات الثورة العالمية . وهنا يصبح الدافع وراء حركة الانسان الجديد وسلوكه هو «الوعي» وليس المصلحة الاقتصادية او الجزاء المادي » . عملية افساد الجيل بعد الثورة ممكنة وسهلة ، وذلك عن طريق السلطة والحافز المادي ، ونشر فكرة القمع والخوف . وفي العالم الثالث عالم النقص والتخلف المادي والنفسي يجري ذلك بوسائل سياسية ابعد ما تكون عن الثورة . ان الثورة هي للكل بعد تصفية الاعداء الطبيعيين ، وليست لفئة محددة وصية حتى ولو كانت الحزب . قد يرى الجامدون والمتعصبون والمحدودو الوعي ، ان الحزب هو الثورة ، وان اعضاء الحزب هم الثوريون الوحيدون الذين وجدت الثورة من اجلهم ، وان الثورة وراثة شرعية وحق تاريخي اكتسبوه مقابل نضالهم. بلا تردد ينبغي ان نقول : لا . ان الثورة ملك الحزبيين وغيرهم . ملك الجماهير والأمة . حق شرعي اكتسبه تاريخ هذا الوطن . فهي لكل من يسهم في اغناء هذه الثورة واخصابها في اي مجال من مجالات العمل والانتاج يدوياً كان ام فكرياً . هذا هو المفهوم الشمولي الاعمق . الزّميتون والقاصرو الوعي يرون في هذا مفهوماً ليبرالياً ، في حين ان المفهوم الثوري لا يتناقض ابداً مع تفجير اية طاقة او امكانية من اجل الابداع والتقدم . ان مزيداً من الوعي يمكنه اكتشاف تلك الطاقات والامكانات الكامنة في

الانسان ، وعلينا آنذاك ان نتيح لهذه الطاقات ان تبدع بدلاً من ان نقتلها تحت ستار العداء الايديولوجي والمنبت الطبقي . ان قانون الوعي هو الأساس . وخلق انسان جديد في مناخ ثوري جديد يقود الى اكتشاف هذا القانون الذي لن يكون الا قانوناً اجتماعياً من خلال العلائق الانسانية التي تمارس في مجتمع ثوري غير رأسمالي قطعاً .

لقد اكتشفت الثورة قوانين التحضير والتهيئة لتنفيذ الثورة ، واكتشفت قوانينها في بناء قاعدة اقتصادية صلبة ، لكنها لم تكتشف بعد قانونها الاساسي في تعايش الحرية مع الاشتراكية ، الحرية غير الاقتصادية ، حرية الانسان بعيداً عن مفهوم رأس المال والتجارة والربح والتراكم والاستغلال المادي . ان الحرية الثقافية جزء اساسي من مفهوم الحرية الكلي ، وهذه الحرية لم تباشر بعد حتى في البلدان الثورية التي قطعت سنوات طويلة في انجاز الثورة . بعد ازالة الاضطهاد والاستغلال المادي من المجتمع كيف يمكننا ان نتصور حصر هذه الحرية وربطها بذيل التحول الاقتصادي وحسب ؟ ان القصور العقلي والتحجر النظري هما المنطلقان الوحيدان اللذان يمكنهما تصور مثل هذا الخطر . مجتمع الثورة مجتمع نقدي ، ينبغي ان يكون كذلك قطعاً ، وفي مجتمع نقدي ينبغي ان يقال كل شيء بلا خوف . والثورة الواثقة من نفسها (والتي لم توجد بعد) المرتكزة على ارضية انسانية عميقة واعية لا تخاف الكلمات . ان المقالة او القصة او القصيدة او المسرحية ليست بندقية او تنظيماً سرياً يهدف الى القيام بثورة مضادة . ومن يفكر بذلك يحمل في اعماقه جنيناً ارهابياً . وهو انسان مذعور ، انسان سلطة سياسية يخاف على كرسيه من هبة ريح خارج غرفته . ان اية ثورة لا تبني الاشتراكية ليست ثورة ، ولكن اية ثورة لا تفهم قانون الحرية هي نصف ثورة ، والحرية تأتي مع محو الاستغلال الاقتصادي وبعد ازالة القواعد البشرية المحتكرة مادياً . ولأن هذه الحرية تعني الفرد اولاً فيجب ان نشطب الفكرة الضبابية التي لا تقيم وزناً للفرد . حتى الآن لم نستطع – في الثورة – ان نحدد تماماً علاقة الفرد بالمجموع بطريقة جديدة وثورية ، وبالتالي قيمة هذا الفرد كعنصر مبدع في السياق الكلي لقوانين الثورة . فنحن ما زلنا نأخذ بالمقولة القائمة : المجموع اولاً ثم الفرد او الفرد من اجل الجماعة . ان الثورة تبدأ من الفرد . واذا لم نستطع بناء فرد جديد فمن المحال ان نبني مجتمعاً جديداً . ينبغي تغيير الفرد نفسه ونحن نبني الثورة ونكملها .

مكابرة كاذبة ان نقول ان الافراد لا يقومون بادوار حاسمة واساسية في تاريخ الثورات ، والا فلماذا المسيح ومحمد ودانتون وروبسبيير ولنكولن وماركس ولينين وماو وتروتسكي وباكونين ولومومبا وفانون وغيفارا وكاسترو ؟ انهم ليسوا الثورة كلها بالطبع . لكنهم كانوا شرارات مركزية مضيئة فعالة قائدة. وكانوا رموزاً حافزة ومحرّضة لا بد منها . ان الفرد الثوري معلم وقائد وهذه حقيقة ثابتة ، ولا يعني الاعتراف بها اغفال الدور الجماهيري في العملية الثورية .

ان الوطن العربي مأزوم ، وازمته ذاتية اكثر منها موضوعية ، وهذه الأزمة بلغت قمتها في هذا الشتات الثوري الذي يعيشه ، وفي هذا الشكل الثوري الكاذب . ومع هذا فهو مناخ خصب للذين لم يفقدوا رؤوسهم بعد ويمتلكون وضوح الذاكرة ويقظتها . اقول مناخ خصب لأنه ينبيء هو ذاته بالثورة على « الثورة » . ان الأهداف الأساسية والدليل النظري صحيحة ، اما النقص فيكمن في الثوري ، في العنصر البشري الذي يتولى الثورة . هذا العنصر الذي بدأ ثورياً وانتهى سياسياً ، بدأ حرّاً وانتهى ارهابياً ، بدأ وحدوياً وانتهى اقليمياً ، بدأ اشتراكياً ولم ينته الى الاشتراكية . مباشرة الثورة يعني استمرارها وتجديدها — اذا اقتضى الأمر ، وينبغي ان يقتضي — وهذه الاستمرارية هي روح الثورة وضميرها . ان هذه العملية الخلاقة للأمة ، الخلاقة للانسان ، تنتهي الى نظام بعد زمن طويل ، بعد مسيرة معبدة بالدم والجرأة والوضوح والتوحيد ، وهذه المسيرة كفيلة بخلق الثوري من خلال مباشرة الثورة ، نقيض الانقلابات العسكرية التي ربّت جيلاً من السياسيين نما وترعرع على مائدة « الثورة » وفي مزرعتها . بعد ٥ حزيران ١٩٦٧ سنحت فرصة نادرة لتلك الانظمة المحسوبة على الأجيال العربية بانها تقدمية وثورية ، وهذه الفرصة هي بدء الثورة من خلال المعركة ، وبخاصة بعد ان بدا واضحاً للجميع القصور والجبن والتفتت والضوضاء اللامجدية لكل من يرى ويسمع ويشعر. فقد كشفت الهزيمة تلك الانظمة وعرّتها ، ففقد الحكام والسياسيون هيبتهم وتأكد فقدان الثقة ، فكان ما حدث من المرارة بحيث لا يسوّغ ، وكان المسؤول مباشرة هؤلاء الذين خدّروا الأرض والسماء بالضجيج الثوري ، ثم انهزموا في ستة ايام . سوّغوا ، هم ، الهزيمة ، اما الشعب فلا ، وقرارات نفوسهم تدرك ذلك . ان ملايين الناس الذين خرجوا يوم ٩ و١٠ حزيران في شوارع القاهرة

وشوارع العواصم العربية الأخرى ، لم يخرجوا من اجل سواد عيون اولئك الحكّام السياسيين ، انما خرجوا وكان على افواههم كلمات فيها كل اصرار العرب على رفض الهزيمة : ان يستمر القتال . كان ذلك مسوّغا للأمة العربية ان تستمر في التاريخ ، ومسوّغاً لوجود اولئك الغارقين في مستنقع السلطة . ان السؤال : لماذا لم يستمر القتال ؟ تجيب عنه تلك الانظمة : محال . لقد هزمنا بعد ان تحطمت الجيوش ! قد يبدو هذا طبيعياً ومقنعاً للوهلة الأولى ، في وطن مستقر موحد ليبرالي او رجعي يعتمد على جيشه النظامي في ردّ الغزاة ، بينما شعبه يباشر حياته خارج السياسة وبشكل طبيعي وهادىء . اما في وطن يعيش مخاضاً ثورياً ؛ في وطن ممزق التراب والنفس ، يتناول شعبه السياسة والأفكار الثورية كما يتناول الطعام ، ويتنفس السياسة والثورة كما يتنفس الهواء ، وينام مع السياسة والثورة ويستيقظ معها ؛ شعب يفترض ان أنظمته هيأته للقتال ضد الغزاة لسنوات طويلة ، ويفترض أن هذه الأنظمة لا تعتمد على جيوشها النظامية فحسب ، وانما على جماهيرها العريضة التي تملأ الدنيا دوياً باسمها ، هذه الجماهير التي خرجت تطالب بالقتال والسلاح فردت على اعقابها بالخطابات الواعدة وتسويغات الهزيمة التي لم يصدقها احد حتى قائلوها ، وبالشارات في معركة نصر مؤزرة آتية ؛ في وطن ملتهب هذا وضعه ، وفي شعب حي الذاكرة ، لم تكن كلمات التخدير ومسوّغات وقف القتال والهزيمة ، مقنعة ولا صحيحة . لكن الشعب مغلوب على امره . كانت الفرصة والظروف والحالة النفسية بعد الهزيمة ، في وضع متوتر كقوس مشدودة ، وكان المناخ من النضج بحيث ان طلقة واحدة ضد العدو الذي أخذ زهواً بنصره ، فانتفجت غطرسته الأميركية — كانت كافية لالهاب الحس الثوري والبدء من جديد . كما كانت هناك فرصة فريدة اتيحت للسياسيين ان يكونوا ثوريين ،وامام عشاق السلطة ان يغادروا السلطة، وامام المتخمين بافكار الثورة التجريدية ، ان يخرجوا الى الاراضي والغابات ليثبتوا انهم ثوريون غير ثرثارين . كان على هؤلاء ان يهجروا السياسة والسلطة والثرثرة والامتيازات ، وان يحملوا البنادق ، ويقودوا المقاتلين في الجبال والوديان ، وان يرفعوا الصوت الثوري الذي لم يعد يُسمع سواه : ان الثورة العربيـة قد بدأت وان مساحتها الوطن العربي برمتـه مروراً باسرائيل والامبريالية والرجعية المرتبطة . وان هذه الثورة لن تتوقف حتى ولو سقطت كل العواصم العربية ،حتى ولو زرعت ارض العرب بالمرتزقة والجنود الاميركيين . فاما الموت او النصر . كانت الجماهير بالطبع تتمنى ذلك وتنتظر ، ولم يكن

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

هناك من مسوّغ يعيد اعتبار الأمة التي طعنت الا هذا الصوت ، ولم يصدق أحد ،الا الحكام ، ان نقيض هذا الصوت يجدي او يقنع . كان بدء الثورة بالقتال بعد حزيران يعني التطهير بالمعنى النفسي ، ويعني في الوقت ذاته ، خلق العنصر البشري الثوري المصقول بالمعركة ، العنصر الذي يعرف معنى التضحية والشجاعة والقيم الحقيقية التي يبذل الدم من اجلها ، والذي يدرك جيداً ان الوطن ليس خطابات ومؤتمرات ولافتات ومخابرات وامتيازات وتعويضات وسيارات انيقة . العنصر الذي يفهم كيف توضع الأشياء في اماكنها الطبيعية، فتفرز المعركة الحقيقية – لا الوهمية – ثوريها وترمي خارجاً تلك الطحالب الانتهازية المنتفعة التي عرّشت على شجرة الثورة ، وامتصت حتى شعيراتها الماصّة .

ان الثوري الحقيقي لا يملك الا الثورة ، فهو لا يخسر شيئاً اذ يباشرها وانما يربح نفسه وينقذها لانها مطهره الوحيد ومستقبله ووطنه . وبعد ٥ حزيران كانت الثورة تعني القتال فحسب ، لأن شرف الأمة وتاريخ الانسان العربي وحضارته قد وضعت في الميزان . كانت كلها موضع الاختبار والاختيار في ان تكون او لا تكون . لم يكن الاختيار انظمة اولا انظمة ، سلطة تقدمية او لا سلطة . وانما كان الانسان العربي والأرض العربية والمستقبل العربي . هكذا كانت المحنة وكان التحدي . ان جميع الانظمة والسلطات والمؤسسات لا تساوي قلامة ظفر انسان لاجيء مهان مُذل ، او شبراً في ارض محتلة مغتصبة يطؤها غزاة نازيون ، والعالم يتفرج . لقد كان استمرار هذا اللجوء منذ عشرين عاماً ، واستمرار سحب هذه الأراضي من تحتنا عاماً اثر عام ، يغتصبها غزاة غرباء من كل اصقاع العالم ، يعني شيئاً واحداً : اننا جميعاً لاجئون حاضراً ومستقبلاً ، وان اراضينا وبيوتنا ومشاريعنا هي لهؤلاء الغزاة الذين ينمون في جلودنا كالسرطان دون ان نتحرك . كان الشعب مكبلاً مرمياً في قاع عجزه واهماله واحتقاره عندما قدم ٥ حزيران العظيم . وكان بدء الثورة بعد الهزيمة اطلاقاً له من قيده واعترافاً رسمياً به في سجلات الوجود الانساني والثوري. لكن الفرصة ضاعت وعادت الحياة تجري باسم مجراها ومرساها . وعادت الانظمة تسوغ وتضج وتعد الشعب بمعارك آتية وثارات لاسترداد الشرف المطعون والأرض السليبة ، كما عادت الى نغمتها القديمة في التحضير وتسليح الجيوش النظامية العتيدة التي لم تحم ولم تكن على استعداد لأن تحمي الا هذه الانظمة ،

الجيوش التي لم تحضر يوماً منذ الاستقلال الوطني الا لخوض معارك انقلابية داخلية لصالح المتصارعين على السلطة ، ولترهب الشعب . ان التركيب العضوي والنفسي للجيوش العربية — التي هزمت في ثلاث معارك خلال عشرين عاماً — ونمطية التدريب ، والوضع الطبقي المخزي في تلك الجيوش بين الضابط والجندي ، والعلائق الانسانية الفوقية السائدة ، والامتيازات غير المحدودة في الرواتب والتعويضات والسيارات والمؤسسات وحياة الرفاه والكسل وتدني مستوى الكفاءة التكنيكية ، التي كشفتها الهزيمة ، تؤكد ان تركيب هذه الجيوش لا يختلف عن تركيب اية جيوش بورجوازية في العالم ، وتؤكد ايضاً ان هذه الجيوش انما كانت تعد لتكون ذراع السلطة الفولاذية من اجل القمع والقيام بالانقلابات .قد تكون هذه احدى مآسي وامراض العالم الثالث المتخلف ككل ، لكنها في الوطن العربي فاقت حدود التصور حتى اضحت ظاهرة حياتية متأصلة. ومع ان الجيش ابن الشعب يدرؤه في الملمات،فإن الأمر القائم هو هوة عميقة من الكراهية والرعب والتوقع تفصل بينهما . هوة عمقتها وتعمقها الأنظمة التي قامت على اكتاف العسكر ولم تقم على اكتاف الشعب والثوريين . ليس في الصين رتب عسكرية ، ولا يمكنك ان تميز بين الجندي والمواطن العادي فالكل جنود ، وفي الاتحاد السوفياتي وكوبا والفيتنام قاتل ويقاتل الجنود والمدنيون جنباً الى جنب . لقد صنعوا ويصنعون الثورة بحرب ثورية جديرة بالاحترام والاعجاب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان الوطن العربي مبتلى بالانظمة السياسية وبالجيوش المتخمة الكسلى التي تعتقد ان التحضير للقتال يبدأ من التحية العنيفة ومن تلميع الحذاء والتقيد بربطة العنق واعطاء التعويضات التي تصل يومياً الى مئتي ليرة او عشرين جنيهاً او عشرين ديناراً ، في حين ان راتب الجندي لا يتجاوز الدينار او الجنيه او العشرين ليرة شهرياً . قد يبدو هذا الأمر جانبياً وشكلياً ، لاننا اعتدناه وصار قبوله فريضة علينا، لكنه في التحليل الواعي لمنطق الثورة امر جوهري، لانه يمس مبدأ التكافؤ ومبدأ العدل الاجتماعي والقيمة الانسانية . ان البديل الطبيعي لهذه الأنظمة وهذه الجيوش النظامية ، هو قيادة ثورية واعية تقود شعباً يشكل جيش الثورة عن طريق الأمثولة التي تقدمها له سواء في معارك القتال او الحياة العملية الانتاجية السلمية . ان قيادة تتحدث من اعلى ،وتفترض انها حازت علوم الاولين والآخرين (في حين قد يوجد في صفوفها اميون

يحسنون القراءة والكتابة والصراخ باصوات عالية في وجه الحجّاب والسائقين لفرض الهيمنة) رامية الى الجحيم واللامبالاة بقواعد شعبها ، متمتعة بامتيازات خاصة ، بحيث اضحت طبقة متمايزة ، ان قيادة كهذه تستطيع ان تقاتل وحدها ، وتستطيع ان تكون وريثة فاشلة للانظمة البورجوازية القديمة التي قامت على انقاضها . ان قيادة كهذه عاجزة قطعاً عن بناء ثورة لانها تفتقر الى ابسط ادبيات الثورة وابجدياتها . لقد تخلت هذه الانظمة – اذاً – عن المهمة المباشرة والأساسية . ولذا تجاوزها الشعب وتخطاها بحثاً عن بديل ثوري غير سياسي . ولهذا كانت الطلقة التي خرجت من بندقية اول فدائي ، مركز الاستقطاب والمنعكس الشرطي لنفوس العرب الذين استجابوا بلامقدمات ، فاستداروا بكل آمالهم وآلامهم نحو تلك الطلقة واستودعوها ثورة الفدائيين المسلحة . اجل نسميها ثورة قبل اكتمال شروطها ، لاننا نريد لها ان تكون الثورة ، بعدان خيبتنا الأنظمة التقدمية والثورية ، وبعد ان هزمنا ثلاث مرات وبعد ان مللنا الصخب الثوري التجريدي ، وشارات التحرير الوهمية التي انجزت ملايين المرات على الجدران والاوراق والنسائم العليلة .

انه لأمل قديم يمتد الى ما قبل سقوط بغداد ، ألا نقطف الخيبة والمرارة والحزن ، هذه المرة ، وان يتاح لنا مرة اخرى العودة الى مسرح التاريخ. نقول هذا والهزيمة سكين مسنونة نبتلعها على مهل ، وهذه الثورة الفدائية تنمو كعشبة خضراء في ارض يباب ، كوعلة في صحراء يزرعها صيادون يهوون اطلاق النار والقتل للقتل . ان المسوغ الوحيد لهذه الانظمة العاجزة عن القتال وعن خلق ثورة ، والمتصارعة سياسياً ، هو ان تكون حصن التموين في العتاد والرجال لهذه البؤرة الثورية الملتهبة التي فجرت كل آلامنا التاريخية المزمنة وجسّدت ثقتنا بالعربي الذي لم يفقد فروسيته بعد ، ولم يشارف الانقراض . انه امل . امل وحسب ، لأننا نكتب في وطن ينبغي ان تشرع البنادق فيه تعويضاً عن حس الإثم والاهمال والخيانة الداخلية .

حيدر حيدر

دفتر افكار

لم اقاتل ، لاهزم ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مَلْجَئي أنتَ ، حين يركلُني الناسُ
ويمضـونَ في دروب الصَّغـارِ
لقمـةٌ سهلةٌ .. ومرَّغٌ لهـا ما
شئت من مَطمـحٍ ، ومن أفكار
لا ألومُ الجياعَ ، جوعُ المضيئـين
انطفـائي في زحمـةِ الأنوار

همـدتْ ضجةُ الرياح ، فدعـني
وطريقي مسـدودةٌ وسِفـاري
أمضغُ المرَّ ، أحصدُ الشوك ، أمضي
من دمـارٍ ، الى جديـد دمـارِ
لا تموتُ الحيـاةُ .. ترقد في الأ
عمـاقِ ، تهوي الى قرار القرار
تتـلوى في القبر ، حتى يشـقَّ
القبر شيءٌ من مُعجزات النـار

من جـلودٍ تمزَّقتْ بسيـاط
الظـلمِ حتى استعصَتْ على الانهيار
شبعَتْ من مَطـارقِ الذلِّ ، حتى
وَلدَ الذلُّ دفقةً من نهـار (١)

---

(١) هذا المقطع من قصيدة طويلة بعنوان : « الشاعر والأصوات » .

كنتُ اكتبُ مَلْحمتي الصغيرة ، عذابيَ الجديد .

كانت كل قيمنا الصريعة ، كل احلامنا المنهارة تتحسس جرحها الذي ما يزال ينزفُ لتقول لصديقها الشاعر :

« ملجئي انت ..
فدعني أتنفّسْ على شباةِ قلم بريء .. »

كنت أخط هذه الأبيات . أعتصر فيها الاعتراف اذا ما أجدى الاعتراف . أحاول بتواضع أن أقول :

انا انسان مهزوم .
ثم أزحزح عيني قليلاً عن هذه الكلمة المرة الظالمة : مهزوم ..
وأمد نظري عبر المقبرة الضخمة من المحيط .. الى الخليج
يتحرك فيها مائة مليون لفظة مرة ، ظالمة . مائة مليون مهزوم مثلي . ثم اجيب بهدوء لا يسمعه الا الليل والريح ، والمذروون مثلي على شطآن الليل والريح .

انا لم أقاتل لأهزمَ . فلِمَ أظلم التاريخ ؟ والحقيقة ؟ والمقبرة الضخمة من المحيط .. الى الخليج ؟

أنا لم أقاتل لأهزم . فلم أبني بمائة مليون كلمة جامدة ، هامدة سفراً ضخماً لانتصارات عدو لم ينتصر – يشهد تاريخ البشر ، مذ وجد للبشر تاريخ – لم ينتصر الا في ميدان واحد : اغتيال الاخلاق ، صلب القيم ، شراء التاريخ وبيعه بذكاء قل أن ولد له نظير .

لم أقاتل ، لأهزم .
كلمات ثلاث آمنت فيها أخيراً إيماني بجلدي . وقلتها شعراً ، وقلتها نثراً ، وسأقولها لجيلي هذا ، لصغاري، للأجيال التي لم تولد :

لم تقاتل الامة العربية .. لتهزم . لم تتحرك مائة مليون رئة معطلة لتقذف بنبضة دم مجابهة . لم تتحرك كل هذه القوى الهائلة ، الميتة ، الهامدة ، المبثوثة بشراً ، ولغة ، وثروة وطاقات مخيفة بين المحيط .. والخليج . وأصر على هذا الشعار الذي ديس تحت الاقدام .. حتى عافه أشد الناس ايماناً به وتقديساً له . أصر على هذا الشعار الواقعي ، الحقيقي ، المهان أشد واقعية من اليأس الذي نمضغ ، والذل الذي نقتات . اشد واقعية من رمال الصحراء التي تحمله . شعاري انا ، وجيلي البائس الممزق . شعار المحيط والخليج .

وأستغفر كل زند عربي يتحرق لمعركة . أستغفر كل شفة تحرق الزفرة حين تطالب بميدان للكرامة . استغفر كل هذا الجيل الذي احترق ، حين أصر على كلمتي الجريحة ، الهامسة : لم أقاتل ،لأهزم .

*

اني ما عنيت قتال جيش ، ولا حرب مدافع وطائرات ، ولا هجوماً صاعقاً هيأه لنا الغزاة ، كل الغزاة ، الغرب ، كل الغرب ، قوى العدوان الهائلة ، كل قوى العدوان الهائلة .

اني ما عنيت معركة دارت بيننا وبين عدو يدعي أنه خرج منها ظافراً في ستة أيام ، ثم يملأ الدنيا بأساطير فوق الاساطير ، عن بطولاته الخارقة ، وتفوقه الماحق في ميدان الرجولة .

أجل ، ميدان الرجولة بالذات . ويطمس كل الحقائق الاخرى التي أعطته الاقـــدام والمخالب . أعطته حتى ساعة التوقيت ، حتى اشارة البدء ، ليضرب ، وينتصر . لم أقصد شيئاً من هذا ، فلي في هذا كله قناعة ورأي .

انني ما عنيت هذه الأيام السود التي وجدنا اسمها ببراعة وسرعة : النكسة . هذه النتيجـــة المنطقية ، المحتومة لتخلف الف عام ، وغياب الف عام عن مسرح التاريخ ، عن أشعة الشمس ، عن ضوء النهار . ما عنيت شيئاً من هذا بكلمة : قتال .

الأمة العربية لم تنزل الى الميدان . لنواجه هذه الحقيقة بعفوية الموجة ، وبراءة الاطفـــال . لنقلها بشيء من ايمان الانبياء ، وطهارة المخلصين . الامة العربية لم تنزل الى الميدان . لم تتفجر المقبرة الضخمة عن طاقاتها الهائلة ، لنسجل عليها عار الانكسار .. دمغة الهزيمة . ان تخلف الف عام لا يسمح لها أن تتفجر ، وغياب الف عام عن مسرح الحياة ، عن اشعـــة الشمس ، عن ضوء النهار ، لا يتيح لامة ،أية أمة ،أن تواجه التحدي . تحدي الحضارة الحديثة بكـــل جشعها ، وطغيانها ، وشراستها ، تحدي الغزو الاستعماري الشرس ، المزود بالنابالم ، وعقـــول الالكترون ، وجسور الطيران تنتصب ، في مثل اللمح ، ما بين القارتين ، لتسحـــق فلاحي القنيطرة ، وبدو سيناء .

الامة العربية لم تنزل الى المعركة بعد . ومن أعماق الموت يمكن ان تولد الحياة . من اعماق التخلف يمكن أن تتفجر الاعجوبة . لقد جربت حتى الآن بقعة واحدة اسمهـــا : الجزائر . أشعلت فيها ثورة ، فجرت فيها طاقة . هل تذكرون ؟ وكانت تلك البقعة التي تفجرت ذات يوم كافية وحدها ان تثبت وجودها ، ان تقهر كل قوى الدمار ، أن تحيل أشد الاوهام ايغـــالاً في الرؤوس حقيقة من لحم ودم ، أن تنتزع حريتها ، واستقلالها بين دهشة العالم ، وتصفيقـــه للمعجزة ، وانحنائه للأعجوبة ، للاسطورة التي تحققت . انني أتخيل — وهبوه وهماً من الاوهام؛ أليس لنا الحق حتى بومضة خيال ؟ — أتخيل هذه البقعة قد امتدت ذات يوم لتشمل ما بـــين المحيط والخليج ، وتفجرت الطاقة ، واشتعلت الثورة . أتخيل وطننا العربي كله وقد استحال الى جزائر فاتح نوفمبر (١) . أتخيل هذا ، واترك لليائسين المزقين مثلي ان يشاطروني تقدير النتائج ، مهما عصف بهم اليأس ، ومزقت ارواحهم خناجر الضياع .

*

حين تقرر أمة أن تدافع عن وجودها ، ان تحمي مصيرها ، ان تقاتل ، تتحول كل نسمة هواء فيها الى وقود للزحف ، كل ذرة تراب الى مخزن رجولة ، كل نبضة دم في فلاح أمي جاهل الى تخطيط واع ، او جزء من تخطيط واع ، للمعركة .

أتظنونني أبالغ ؟ اننـــا جميعاً نسمع منذ أعوام ببلد صغير صغير اسمه : الفيتنام . وشعب صغير ، صغير ، تحمله تلك البقعة من الارض .اننا جميعاً نعرف ماذا يفعل ذلك الشعب الصغير ، وماذا استطاعت تلك البقعة الصغيرة ان تقدم من المعجزات . لقد اجبرت أعتى قوة في العـــالم على الركوع . الطاقة الصغيرة التي تفجرت دفاعاً عن مصير ، البقعة المحدودة التي قررت ان تنافح عن وجودها ، ان تحمي كرامتها من الاقدام الغازية . اجبرت أعتى قوة في العـــالم على الركوع ، أجبرت حتى الشعب الذي يقصفها بالقنابل ، يمطرها بالنار ، على ان يقاتل معها ، ان

---

(١) فاتح نوفمبر (تشرين الثاني) بدء الثورة الجزائرية عام ١٩٥٤.

يخرج الى الشارع في قلب واشنطن ، وشيكاغو ، ونيويورك ، ليدافع عن ثوار الفيتنام ، عن فلاحي الفيتنام .

لم تنفع « التكنولوجيا » الحديثة . لم تنفع الطائرات والصواريخ . لم تجد شيئاً غارات « الفانتوم » المخيفة ، الفانتوم التي يرعبوننا بشبحها ، يخيفوننا بالحديث عنها ، عن خمسين منها، عبر الاذاعات . صباح مساء . كانت « الفانتوم » الاسطورة هناك صيداً جميلا يستمتع به فلاح فيتنامي قصير جثم وراء مدفع متواضع . وقرر ببساطة ان يقاتل ، ان يرد الغزو ، أو يموت دون كرامته ، ووجوده ، ومصيره . لم يكن فلاحو الفيتنام القصار كلهم علماء ذرة ، ومهندسي أقمار تطير ما بين الكواكب ، لم ينتظروا الف عام ، ليقبضوا على اسرار « التكنولوجيا » الحديثة ، والعلم الحديث . ثم يتشاوروا بعد ذلك طويلا ، طويلا ، ويقرروا ان يكون لهم كرامة يدفعون عنها ، ووجود يحرصون عليه ، ومصير تحت الشمس يرفضون ان يلقوا به تحت الاقدام .

لم ينتظروا الف عام ، ليهضموا الحضارة ، ليفلقوا الذرة ، ليصنعوا « الفانتوم » ، ثم بعد ذلك . يتحسسون ماء وجههم ليصونوه ، ويدركون انهم بشر مثل غيرهم من ابناء الارض ، لهم حق الحياة ؛ وانه حق مقدس لن يسمحوا لاحد ان يعتدي عليه ،ان يدوسه بالنعال كلما شاء ، ليقفوا بعد ذلك مولولين ،باحثين عن وسيلة هينة ، لينة « لازالة آثار العدوان ».

*

حين تقرر امة ان تحمي مصيرها ، ان تصون وجودها ، يتغير كل شيء . يتغير حتى الشجر والحجر ، والتراب . تنبت للكسيح اقدام . وللأعمى عيون . وللأصم آذان . وللخامل الميت اليائس اجنحة . شيء ما يهب على الارض ، فيحييها بعد موات . ويحيل الذل والجوع والتشرد والحرمان اعمالاً رائعة ، ومواقف من بطولة وابداع لا تخطر على بال .

*

الثورة ابداع أمة . هذا هو التعريف الذي يمكن ان يقنعني . وسكان المقابر لا يبدعون .

*

كنت اكتب ملحمتي الصغيرة ، عذابي الجديد . كنت اخط الابيات التي صدرت بها هذه الكلمة . حين تناهت الي هذه المجموعة التي بين يدي. هذه المختارات من شعر المقاومة .وتصفحتها قرأتها بدقة . ومرت لحظات . وغامت المجموعة كلها . ذابت بين يدي وبقيت هذه الكلمة الحلوة المرة ، الجريحة المتحدية ، المهزومة المنتصرة . بقيت منتصبة أمامي تملأ سمعي وبصري . تحصي علي أنفاسي . تلاحقني كيفما تحركت :

المقاومة ..

هذه الطريق التي اقرتها شرائع السماء والارض وباركت أبطالها شرائع السماء والارض . وهل هناك من امل ، من طريق من وسيلة للبقاء غيرها ؟ هل بدأت الشرارة المقدسة ؟ هل بدأت المقاومة حقاً في رحاب هذه المقبرة الضخمة الهائلة ، في رحاب وطننا العربي الكبير؟

اني اتلقف كل نبأ عن رصاصة يطلقها فدائي ، عن خشة قدم في الظلام تقاوم الغزو المجرم. ويتلقف هذه الانباء كل عربي مطعون مثلي ، كل عطشان الى ومضة حياة ، الى قطرة أمل .

انها بداية ، مهما اختلفت فيها الآراء ، مهما كان التكوين ، ايا كانت الولادة . العمل

الفدائي بداية . والمقاومة العربية في الارض المحتلة وفي غير الارض المحتلة ، بداية فاتح نوفمبر جديد . بداية لفلق اول نواة عربية تهز المقبرة الضخمة ، الهائلة . تحرك مائة مليون رئة معطلة . خطوة ، خطوة . ومحاولة جادة في اثر محاولة . وليس يهم ان تخفق محاولة او اثنتان . لا يهم ان نحصد ظفراً قريباً ، او نجني انتصارات عجلى . المهم ان تبدأ المقاومة ان تتدرب بعض الاقدام التي ماتت من الف عام على الحركة .. على الحياة .. على تحسس وجودها المسحوق في هذا المحيط المستسلم ، الراكد ، الذليل ، هذا المحيط الهائل ، وطننا العربي الذي تكمن فيه نصف ثروة الدنيا ، وتختبىء في رماله الفسيحة طاقات من بشر ولغة وحضارة هامدة وامكانات جامدة لا يقوى خيالي المتواضع على تصورها الا في حدود الشعر والبيان .

الثورة ابداع أمة : هذا هو التعريف الذي أومن به . وسكان المقابر لا يبدعون . وحراس المقابر لا يبدعون . ومن يعيشون على التجارة باكفاننا ، وموتنا ،لا يبدعون . ان المبدع وحده خشة قدم لفدائي عربي تتلمس طريقها بين الصخور ، برغيف يابس ، ونبضة حب للأرض، لتقول للغزو المجرم : « أنا هنا .. »

واذا أتيح للصوص في فترة من عمر الزمن ان يسرقوا ارضنا ، ويطردوا شعبنا ، ويضعوا وجودنا كله تحت رحمة « النابالم » و« الفانتوم » ، اذا سرق الغزو المجرم ، المزود بالحضارة الحديثة ، كل الحضارة الحديثة ، فترة من عمر الزمن ، اذا سرقوا مع ارضنا عيون العالم وصادروا آذان العالم ، فلم يسمعنا احد ، ولم يبصر جريمتهم احد ، فان خطوات الفدائي العربي وحدها هي القادرة على ان تعيد الى العالم عينيه وترد اليه أذنيه ، ليرى ويسمع ؛ هي القادرة على ان تقول للغزاة باللغة الوحيدة التي يفهمونها : انني البداية ، والمعركة طويلة ، طويلة ، والتاريخ لم يكن قط ولن يكون أبداً ، ستة ايام .

وبعد ، اذا كنا – نحن المنثورين بين المحيط والخليج – لم نبدأ ملحمة المصير بعد ، واذا كان هذا هو الطريق ، الطريق الذي أقرته شرائع الارض والسماء ، وباركت ابطاله شرائع الارض والسماء ، المقاومة .. الفداء ، فأين تقف الكلمة المجنحة من هذه الملحمة ؟ وما دور الشعر والشاعر في هذا المخاض المظلم ، الكبير ؟

الشعر كلمة جميلة ، مسؤولة ، قلتها كلاماً ، وحملتها قضية . منذ فتحت عيني على القضية وعلى الشعر ، طفلاً في قريتنا الصغيرة النائمة على حافة العاصي . في بلدنا الصغير الضائع في لواء الاسكندرونة .وما أراني بحاجة الى ان اضيف جديداً على هذه العبارة الموجزة .

نعم ، ايها الاخوة الكتّاب وغير الكتّاب ، الشعر كلمة جميلة مسؤولة . والشاعر وحده هو الذي يحدد مسؤوليته . وعنصر الجمال هو الاساس . هو الخطوة الاولى . على الكلمة الشاعرة ان تحمل الجناح القادر قبل ان تمد عنقها الى حمل المسؤولية ،الى التعبير عن قضية تبلغ مستوى الرسالة في بعض الاحيان .

اني لاتهيب الكلمة ،كلما اردتها لتكون صوت القضية ، انشودة العطاء ، لسان الجماهير العطشى . ما اصعب ان يكون الانسان شاعراً في مثل هذا الموقف! وما اروع ان يكون! أتظنون ان قصيدة رديئة يمكن ان تخدم قضية ؟ انها لتسيء ، في رأيي ، الى الموضوع النبيل الذي تمد يدها اليه . تلحق فيه من الاذى والتشويه – عن وعي او غير وعي – أضعاف أضعاف ما تنفعه اذا كان في الكلمة الرديئة نفع لاي شيء . اني لاتهيب الكلمة كلما مددت ريشتي الى موضوع نبيل . ان الاعشاب الضعيفة ، الهزيلة ، لا تصلح جذوعاً

لاشجار السرو والسنديان . لا اريد ان اشير الى احد من اخوتي الكتاب . ولا ان اومىء الى قصيدة بعينها أنّى وجدت ، ولكنها قناعـة نزلت من نفسي منزلة التقديس ، ورأي اقوله بتواضع وايمان . وابدأ بنفسي ، قبل كل انسان .

لنكتب للمقاومة ، للفداء ، لانهار الحياة التي تنتظرها مائة مليون شفة أحرقها العطش . لنكتب للحب ، للربيـع ، للأطفال ، ولكن لحبّ يرفض الاحتلال ؛ وربيـع لا ينبت تحت اقدام الغزاة ، وأطفال لا يولدون، ويموتون لاجئين .لنكتب لكل مظلوم ، لكل محروم على الارض ، فنحن منهم ، وهم منا ، شئنا ام ابينا . وقنبلة النابالم لا تفرق ابداً بين فـلاح من حوران ، وفلاح من ضاحية (هانوي) . ولكن ، لتنبت الكلمة العميقة ، الصادقة من جلودنا ، لتحمل رائحة خيامنا وعذابنا ، لتتعمّد بذرات ترابنا الذي يغتصب ، وحشرجات شعبنـا الذي يباد .

وستظل الكلمة الجميلة ، الصادقة واحة عزاء يفيء اليها المتعبون ،ويقيل في ظلالها المقاتلون. تلف الضماد على الجراح ، وتوقد الشعلة المنطفئة في ساعات اليـأس الحالـكات . وتشرق في كل صدر ، على كل ثغر ، نبضة من حياة ، ودفقة من رجاء .

سليمان العيسى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العقل والعنف

(خواطر حول الثورة الفلسطينية)

١

المشـكلة الرئيسية التي تواجه المثقفين العرب اليوم هي صياغة المضمون الفعلي للثورة العربية. فلم تعد الايديولوجيات ، في هذه الفترة ، تهمّ بقدر ما تهمّ الصياغة ذاتها وكيفية إتمامها .لم يعد يكفي أن يكون العربي منضوياً في التيار الايديولوجي المناسب ، ذلك ان الموقف الايديولوجي المجرّد مهما كان صائباً لا يفي بالحاجة الحاضرة . انه يعجز عن أن يضيء الطريق ويهيء للعمل . الشرط الرئيسي لأي نقد حي هو التحرر من قيود المذهبية الضيقة والتعرف الى الحقائـق كما هي .

كل نقد يهدف الى اقامة مبدأ حي لا بـد له أولاً من أن يتغلب على العقليـة التي تفسر الأمور بسببية مبسطة . فمثل هذه السببية لا تصح الا في اطار الاحداث ذات البعد الواحـد حيث تفقد الحركة معناها ويصبح التغير تتابعاً وحسب ، ولا يعود الفكر الا انعكاساً لأحداث غير مترابطة يعجز عن تنظيمها واستخراج مغزاها العميق .

هناك ، مقابل العقلية السببيّة ، عقلية تتمسك تمسكاً أعمى بنظريات مسبقة . والمبـدأ

الحي يتجنب هذين الموقفين وينطلق أساساً من تحليل للقوى الاجتماعية ضمن أطرها التاريخية .

والنظرة التي تنتج عن مثل هـذا الموقف تستوعب العلاقات الديالكتيكية كما تستوعب العلاقات السّببية • إذاك تنتفي الحاجـة الى اعادة النظر في المبدأ ازاء كل حدث كبير . فالأحـداث تأتي لترسّخ المبدأ الذي يتطور ليصبح أكثر التصاقاً بالواقع وأكثر دقـة في توجيه العمل .

ان النقد الحقيقي هو بدء الطريق الجديد ، ونحن الآن على مشارف هذه الطريق . يـدل على ذلك النقد الذاتي والتساؤل الذي يمارسه المثقفون العرب منذ حزيران ١٩٦٧ . وتـدل عليه مطالب الطلبة والعمال لمزيد من التحرر في الهيكل السياسي القائم .

يمكن التحقق من هذه العملية الديالكتيكية في مجال آخر . فبعد الخامس من حزيران ظهر تأييد شعبي موقت لنظم الحكم القائمة ، ورافق هذا التأييد انعدام الثقة بسياسة هذه النظم ومنجزاتها . كانت الهزيمة بركاناً عنيفاً أيقظ قوى سياسية من سباتها العميق واطلق قـوى ثورية دفينة من عقالها . هكذا ترسّخ الوعي الثوري الذي كان يبشر به قادة «فتح» الثوريون منذ عام ١٩٦٥ ، وأصبح فجأة موضع ايمان لفئات كبيرة من الشعب ونتج مقابـل « التسوية السياسية أو السلمية » التي تدعو اليها الحكومات العربية مبدأ القتال والتحرر الوطني كما صاغته « فتح » . ان الثورة التي أعلنت من القمة تجابه بثورة جديدة من القاعدة .

٢

تعتبر « اليقظة الثورية » الفلسطينية للثوار العرب طليعة الثورة الشاملة في العـالم العربي . فقد تهيأ الجهاز العملي لتعبئة العناصر الثورية (الجيل الثاني من اللاجئين الفلسطينيين الذي بدأ عقده الثاني)وعلى هذا الاساس يمكن القول ان انتشار الوعي والتنظيم الثوريين سيزداد ويقوى بقدر ما تزداد العقبات التي تعارضه وتقوى .

ان الامر الجديد في الحركة الثورية الفلسطينية هو انها فرضت اتجاهاً ثورياً جديداً بالنسبة الى موقف العرب من القضية الفلسطينية . فالقادة الثوريون يعتنقون مبدأ « التحرر الثوري » اعتناقاً راسخاً ويرفضون المناورات السياسية التي تهدف الى تأمين مكاسب سياسية معينة . تشهد على هذا جميع النشاطات التي قامت بها هذه الاجهزة الثورية . ومما لا ريب فيه أنه سيكون لهذا الاتجاه الجديد انعكاسات قوية على السياسة الرسمية للدول العربية .

ان للعمل الثوري اتجاهين : يتصل الاول بالعمل الذي يشمل مختلف انواع المقاومة في الارض المحتلة ويتصل الاتجاه الثاني بتوسيع قاعدة الثورة . ولقد ازدادت في الاتجاهين فعالية الثـورة بالنسبة الى اتساع الجهاز الثوري وتحسّن معداته وانتشار الوعي السياسي بين مختلف طبقـات الشعب .

وبرهنت قيادة حركة الثورة الفلسطينية عن بعد نظر ونضج في العمل . ففي مجال المقاومة المسلحة اظهرت مقدرة في المرونة والمناورة . فعلى الرغم من ازدياد الضغوط في الارض المحتلة كيّفت عملها بالنسبة الى تبدل الأوضاع بما يعود عليها بالفائدة . ان حلقة العنف والعنف المضاد تتطور بشكلها الكلاسيكي لتؤدي الى تزايد في صلابة المقاومة ، ورهافة في القيادة السياسيـة

وتحسن في أسلوب العمل . ومع ازدياد التضحيات والانتصارات تضيق الفجوة بين الحركة الثورية والشعب .

ان نمو الثورة الفلسطينية سيؤثر في طبيعة القوى (السياسية والعسكرية) ليس في قوى العدو وحسب ، وانما كذلك في طبيعة الهيكل السياسي للعالم العربي . وستتجلى فعالية هذا النمو في اضعاف السياسة المحافظة وفي مزيد من الديمقراطية في النظم الثورية وتوسيع قاعدتها الشعبية كما انه سيكون وراء تفجير الصراع بين النظم المحافظة والمعتدلة من جهة والنظم الثورية من جهة اخرى ، ووراء مزيد من المقاومة للاستعمار الغربي .

ان الواقع الذي أدى ، منذ عشرين سنة الى تأسيس دولة اسرائيل ، ادى بدوره الى انهيار النظم السياسية والاجتماعية المتخلفة وفتح الطريق امام الانقلابات العسكرية . كذلك ادت هزيمة حزيران الى نوع آخر من الانقلابات : انقلاب ينطلق من القاعدة الى القمة .فطليعة الحركة الثورية لم تعد تتمثل بعسكريين يتسلمون زمام الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية بل في ثوريين يقفون في مقدمة قوى شعبية واسعة . وهؤلاء هم الذين يهددون مراكز « الثوريين » العسكريين والحكام التقليديين والمعتدلين جميعاً . وستكون النتيجة انهيار « الاوليغارشية » العسكرية وقيام حكومات ثورية بالفعل وتحسّن في الأوضاع العربية يساعد على خلق تعاون حقيقي بين مختلف الدول العربية في المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية .

٣

ليس الاستعمار الصهيوني اختراعاً ابتدعته الدعاية العربية . لقد احست الجماهير العربية بخطر هذا الاستعمار بشكل بدهي ولهذا فانها قاومت اية مساومة مع اسرائيل . ان الذين لم يشعروا بهذا الشعور هم القادة والمثقفون والاغنياء .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعد حزيران ١٩٦٧ بدأ الاستعمار الصهيوني مرحلة اكثر جرأة بحيث اصبح مخاطرة ظاهرة للجميع . لم تعد المجابهة الاسرائيلية للبلدان العربية مجابهة عسكرية وحسب ، بل أصبحت الى ذلك تحدياً مباشراً لامنها وسلامتها . انها تهدد ثوراتها الاجتماعية واستمرار تطورها الاقتصادي . انها تساعد الرجعية على ترسيخ جذورها وتعطي الاستعمار الغربي مواطىء لاقدام جديدة في المنطقة .

ليس هناك اية منطقة في العالم تواجه ما يواجهه الشرق العربي من تحد بسبب الصهيونية .

ان هول التهديد الصهيوني قد تسرب الآن بشكله الكامل الى اذهان الجماهير العربية .ولهذا فان شعوراً عميقاً من القلق يساور العالم العربي . فالجماهير لم تعد تثق بحكوماتها كما انها فقدت الثقة بجيوشها النظامية . مقابل هذا ، بدأت تتشكل حركات ثورية اصيلة كما ان المثقفين المقاتلين وبخاصة من يبرز منهم في صفوف الفدائيين الفلسطينيين بدأ ايمانهم ينحصر في طريق واحدة : طريق المقاومة الشعبية . وقد يستطيع هذا التحول ان يؤدي الى حرب تحريرية شاملة تجعل من ارض المنطقة بأكملها ارض المعركة . الى جانب هذا الايمان تكون تجربة القادة للحلول السياسية وتسليح الجيوش وتدريبها عملاً لا يتناقض مع العمل الثوري .

انهم يعلمون ان اسرائيل هي كالولايات المتحدة قوية عسكرياً ومتقدمة تقنياً تقدماً كبيراً بحيث تصعب مجابهتها على الصعيد العسكري النظامي كما ان الحلول السياسية مستحيلة

لانه لا يمكن المرء أن يفاوض وهو في مركز الضعف . الامر الوحيد الذي يمكن ان يخضع القوة الاسرائيلية ويجبرها على التفاوض هو حرب الفدائيين ، شريطة ان تفتح الطريق امام الثورة الشعبية الشاملة ، وتتجانس مع طبيعة المنطقة وتمتد عبر فترات زمنية طويلة ومستمرة . انهم يعلنون ان الحروب تشن اما بواسطة التكنولوجيا المتفوقة واما بواسطة الثورة . ولا يسع المقاومة ان تنتظر تغير الذهنية العامة ولا اكتمال التحول التقني والحصول على اسبابه . ان الالتزام الثوري يخلق الوعي الثوري الذي يجعل بدوره تعبئة القوى الكامنة في الشعب امراً ممكناً — انه يهيء التربة التي تنمو فيها القدرات التقنية .ان المجتمعات تغير ذاتها فيما تحرر ذاتها.

ازاء هذا يجب ان لا يكون هناك شك بالتضحية . لكن لم يبق بالنسبة الى العرب مجال للاختيار ولا للانتظار .

هل ان المقاومة الثورية ، على مستوى كهذا المستوى،أمر ممكن؟ ما هي الشروط الاجتماعية والسياسية التي تجعل مقاومة كهذه امراً ممكناً ؟

٤

هناك من يعتقد وبخاصة ابناء الطبقات المتوسطة وبعض المثقفين وبعض الحكام العرب ان من الضروري ، لتجنب فاجعة حرب ذرية ، ان تعقد اتفاقات صلح . وهؤلاء يعلنون ان العداء والتصميم على القتال في الماضي ، هما اللذان كانا وراء نتيجة حزيران . فلو تم القبول بخطط التقسيم عام ١٩٤٧ لما وجد العرب انفسهم في هذا الموقف الحاضر .

ان قصير النظر يرى الامور بأجلى ما تكون عندما ينظر الى الوراء . والذين يتمسكون بمثل هذا المنطق يتجنبون مجابهة الحقيقة السياسية انه يعتقدون ان بامكانهم ان يخدعوا الصهيونية فيكون الصلح الذي يوافقون عليه حصاراً لاسرائيل في حدودها المعينة . انهم لا يرون ان احتلال مصر والاردن وسوريا ولبنان لم يتم عام ١٩٦٧ الا لان اسرائيل لا تملك الوسائل لابقاء هذه الاراضي تحت سيطرتها . فلو كان لاسرائيل الآن القوى البشرية والمالية الكافية لما توقفت عند القنال أو نهر الاردن او القنيطرة .

ان أمل اسرائيل في الوقت الحاضر هو ان تنجح في اجتلاب أعداد متزايدة من اليهود اليها وان تضاعف في وقت قصير عدد سكانها ، وحين يتحقق هذا الامل فيرتفع عدد سكانها الى خمسة ملايين وتتضاعف قوتها العسكرية ، ستسعى الى تغيير خريطة المنطقة تغييراً نهائياً .

الحالمون وحدهم(الذين يدعون انفسهم واقعيين) ينظرون وراءهم مفتشين عن الاسباب والاعذار للدعوة الى حلول سياسية .يعتقدون انهم يتمكنون بوساطة المفاوضات من الحصول على شيء مقابل لا شيء . هؤلاء تعودوا ان يعيشوا على اتعاب الآخرين ويأخذوا المنافع مجاناً . لم يحاربوا قط وانما عملوا على كسب مغانم الحرب التي يخوضها سواهم .

مثل هذه العقلية ستؤدي الى تصادم حتمي بين الثوريين وهذه الفئات . ولقد أعلنت « فتح » بعد الحرب الاخيرة بوقت قليل انها ترفض شعارات الخرطوم كما ترفض جميع الحلول التي لا يقبل بها عرب فلسطين .

ان المستقبل يحمل لنا مآسي كبيرة . ان فواجع وآلاماً كبيرة تنتظر الشرق العربي . وعلى الفلسطينيين العرب ان يتحملوا التضحيات الجسام .واغلب الظن انهم مستعدون اليوم لهذه التضحيات

بعد ان ذاقوا مرارة الضربات دون ان يردوها . ان تصميمهم على القتال اصبح راسخاً ، ولا أظن انه سيتزعزع .

لماذا التفريق بين العمل الاجتماعي البناء والعنف والشهادة ؟ كلا ان الموقفين ليسا على طرفي نقيض . ان العمل البناء لا بد له ، في هذا المجال ، من اليقين بأن العنف أمر لا مفر منه ومن التخطيط لتحمل أعبائه .

٥

هل جاءت ثورة الفلسطينيين العرب متأخرة عن زمانها ؟ إن ما يبدو هو أن على المقاومة الفلسطينية ان تنتظر طويلاً لتبلغ أهدافها . غير أن أموراً تعمل لصالحها ويمكن بواسطتها ان تعوّض عن خسارة الوقت . تتمثل هذه الامور في المعطيات الحالية لطبيعة الصراع : الصهيونية طرف مناقض للمقاومة الفلسطينية . معنى هذا ان الوجود الاسرائيلي يستثير المقاومة ويجعل الصراع محتماً والتعاون مستحيلاً . ان الهيكل الثوري الفلسطيني قادر على الملاءمة بينه وبين مختلف الاوضاع داخل الاراضي المحتلة وخارجها ضمن شروط التناقض الحاصل ، دون خطر انحلاله. في خارج الارض المحتلة يتوفر لهذا الهيكل مجال يمتد من الابيض المتوسط حتى الخليج لتجنيد المقاتلين والانصار .

وازدياد الضغوط الصهيونية والاضطهاد الصهيوني سيجعل من هذه المنطقة بكاملها أرضاً متحدة في نار الثورة . ان عرب فلسطين كأعدائهم اليهود قلة في العدد وهذه هي نقطة الضعف. لكن بامكان الفلسطينيين ان يتحملوا وقتاً طويلاً اصابات بنسب أكبر مما يمكن ان يتحمله اليهود (حتى الآن تبلغ نسبة الاصابات بين الفلسطينيين عشرة اضعاف ما هي عليه بين صهاينة اسرائيل) . هذا ما يدعو الفدائيين الى ان يتوقعوا اصابات عالية بينهم . الا ان ازدياد الذين ينضمون اليهم يعوض عما يتكبدونه من خسائر . ثم ان الاصابة التي تنزل بقوى الاضطهاد تؤثر فيها معنوياً اكثر مما تؤثر فيمن نذروا انفسهم للعمل الفدائي . هذه الحقيقة يجب ان تبقى في الاذهان في ميزان العنف والعنف المضاد .

لم يتوقع قادة اسرائيل ان ينشأ الجيل الثاني من الفلسطينيين نشأة ثورية ، وكان رد الفعل الاولي عندهم ان يقللوا من شأن هذا الامر امام مواطنيهم وأمام الرأي العام الاميركي الذي يساندهم . ترى ما يكون موقفهم عندما يبلغ هذا التحول ابعاده الشاسعة ؟

التحول المقصود هنا هو تحول عميق وجوهري في الوعي الثوري بين ابناء فلسطين . ومثل هذا التحول في الاطار الفلسطيني والعربي بشكل عام لا يمكن فهمه قياساً بتجارب اخرى او على ضوء نظريات عامة .

لقد اصبح الاسرائيليون بعد انتصاراتهم خلال عشرين عاماً كالالمان سجناء نظرة ضيقة للعرب ، عملوا على تغذيتها خدمة لاغراضهم . الا ان هذه النظرة اصبحت عقبة تحول بينهم وبين رؤية الامور على حقيقتها ، وبالتالي تتضمن بذور انهيارهم . لقد اصبح الاسرائيليون ينظرون الى العربي كما تتمنى ان ينظر اليه العالم وكما يتمنون هم ان يكون : جاهلاً متأخراً ، غير قادر على التكيف مع الظروف او التغلب على الحالة التي يعانيها .

اما الدعوة الى مفاوضات سلام فقد استعملتها اسرائيل باستمرار للدعاوة في اوساط نفوذها الاميركي كما استعملتها للضغط على العرب ،ومن الواضح انه لو اصبحت هذه المفاوضات أمراً

واقعاً اليوم لفشلت في ان تحقق اتفاقاً اساسياً . ان امل اسرائيل هو ان تستخدم المفاوضات كحاجز بين الدول العربية يقف حائلا بين تعاونها بعضها مع البعض الآخر ويؤدي في النهاية الى فرض « السلام الاسرائيلي » على كل من هذه الدول بمفردها .

ان الصفة البارزة لحرب حزيران عام ١٩٦٧ لم تكن النصر العسكري الساحق الذي احرزته اسرائيل ، وانما فشلها في تحويله الى انتصار سياسي . لقد ادى انتصار اسرائيل الى تهليل لم يدم طويلا والى حيرة ما تزال تعصف بقادتها . لم يقض هذا الانتصار على تصميم العرب على القتال كما انه لم ينجح في اخضاعهم . اما بالنسبة الى الفلسطينيين فقد كان هذا الانتصار الشرارة المنتظرة لاشعال نار الثورة ، وها هم للمرة الاولى منذ عام ١٩٣٩ يقاتلون ككيان ، وكشعب ذي شخصية متميزة مستقلة .

ان العرب يعرفون اليوم انه لو تم لاسرائيل انتصار سياسي بعد انتصارها العسكري في حزيران لما اكتفت بفرض السلم ، بل لعملت على تثبيت مناطق نفوذ لها في المنطقة وفرضت ارادتها في المجالين السياسي والاقتصادي ضمن هذه المناطق . ومثل هذا الفهم اصبح شائعاً في وعي الجماهير العربية ترسخه في اذهانهم مجاري الامور لا النظريات والمبادىء . لقد حققت حرب حزيران بهذا المعنى ، تحولات جوهرية لم تحصل خلال عشرين سنة من المجابهة بين العرب واسرائيل .

٦

بقينا طيلة عشرين عاماً نعتقد ، عن جهل ، بأن حلا سلمياً عادلاً وانسانياً أمر ممكن . بقينا عشرين عاماً نجهل طبيعة الحركة الصهيونية وأهدافها .سخرنا من اخطار الاستعمار الجديد وأخافنا خطر الشيوعية .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد آمن جيل كامل من مثقفينا بما يقوله البير كامو من ان العقل لا العنف قادر على الانتصار وانه سينتصر . وكان فضل حزيران انه هزنا من غفوتنا واظهر لنا خطل هذا الموقف . نعرف الآن ان عمل المنطق والعقل لم يعد ممكناً وانه لا بديل للعنف .

الواقع ان المثقفين ، بشكل عام ، هم جوهرياً سذج ؛ انهم يحتاجون الى الوقت اكثر بكثير من الرجل العادي ليفقهوا الامور على حقيقتها . اننا اليوم نودع كامو لنلتحق بفانون وغيفارا: ما أخذ بالعنف لا يرد إلا بالعنف .

الاعتقاد بان «الروح» ستنتصر امر يدعو الى السخرية . ان الروح قادرة على الانتصار من خلال فوهات المدافع لا غير . لقد دفعنا ثمناً غالياً لنتعلم هذه الحقيقة .

ليست المشكلة فيما اذا كانت اسرائيل ستبقى ام لا ، وانما هي في كيفية الشكل الذي سيأخذه الوجود اليهودي في العالم العربي . ان السلم مع الصهيونية أمر مستحيل ، اما السلم مع اليهودية فأمر ممكن دائماً .

ان الغضب الاخلاقي رفاهية وباب للهرب . ويدعي المثقفون ان الحق يملك القوة الذاتية على الانتصار . ولكن ماذا يعني الحق ، الكامن منه والجلي ، عندما يداس بسهولة بفعل القوة ؟

ان صفوفاً من الثوريين خلقوا وعياً جديداً في الشعب . لقد قهروا الخوف بموتهم ، وأعادوا لنا الامل . وحين تكتمل دورة التضحية يصبح الامل ، بشكل ما أقل ايلاماً ؛ والمخاطر اقل خطراً،والحياة ذات معنى أكبر .هكذا تأخذ الافكار والكلمات مكانها الحقيقي كأدوات للفعل.

هشام شرابي